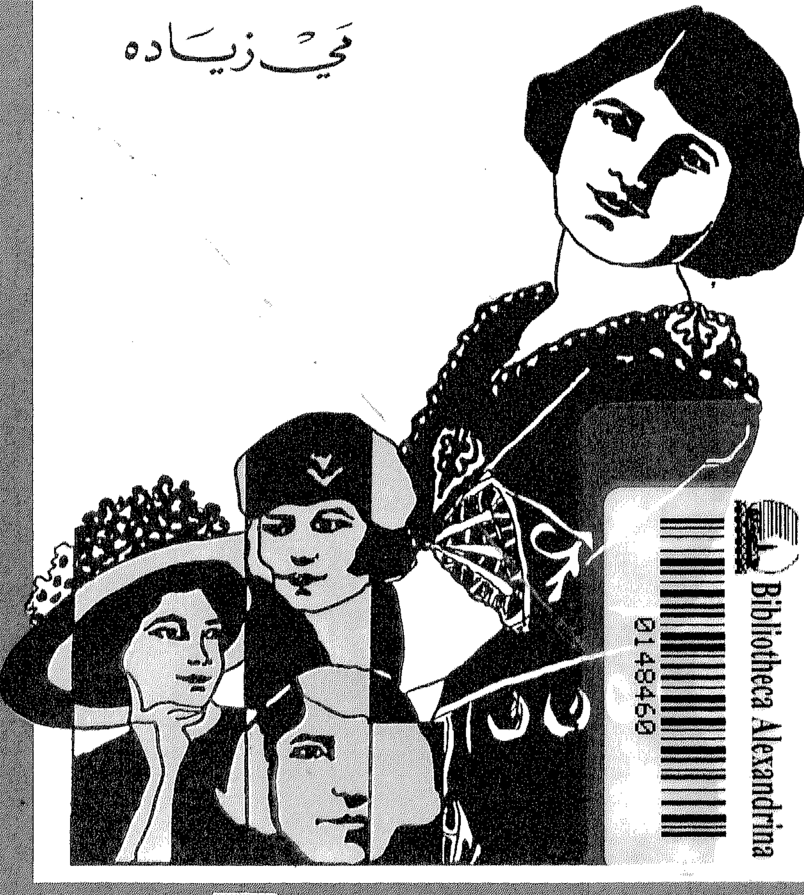
سوانح فتاة

مي زياده



مؤسسة نوفل

سوانح فتاة

سوانح فتاة

مؤسسة نوفل ش.م.م

بيروت - لبنان

الطبعة الثالثة
١٩٨٩

© مؤسسة نوفل ش.م.م
بناية نوفل ، شارع الحمراء
تلفون ٣٥١٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤ ، تلكس ٤٣٢١٠ نوفلتك
ص ب ١١/٢١٦١ ، بيروت ، لبنان

فيما يأتي صورة الرسالة التي وجهها وليّ الدين يكن بخطه إلى الآنسة مي يناشدها فيها ضم سوانحها في كتاب .

ولا ريب في أن تلك الرسالة هي خير مـا تـتوّج به هـذه السوانح .

الناشر

الى حضرة الشاعرة الآنسة مي

مصر في 29 ابريل 1912

سيدتي :

وددت لو أوتيت من الكلام ما يكون حقيقاً بيسري اليك

في اوجلت النهاية . انا حزينة . انظر فارى فضلا باهرا

ويضوتفني الى تلك المجالس . ثم تستوقفني عرفانا بجميع .

ما يبدو القلبين في بداية القدرة . لتعانيك الدهر وتنفخ

بنشيد ايزيس واوزيريس .

لا ادري ما اصف بحاسة الطيب ام صوتك الرخيم

ام كلماتك العذبة ام فكرك الخيّر . اقوى ما في هذه الملامات

يدرك عنواني ويبقيني عند الاحاطة بأدبائكم .

كانت لي في دولة الشعر مكانة . واليوم اشهد انى

لا اكاد اهوي من عليائك . انت كالنسيم في كل

بيدائك ولكنك منطلقة وانت ثابتة . ولا اقول

انك من سلالة من سيدات الشرق ولا من حاجزتيه

من سيدات الغرب ولا اقول انك حمامة الدوح

فتلك جماد وانت معه ولكني اقول انك جيل

الشعر . الصادح في روضة الحياة .

وفصول السنة تعلو بالمدارك وتثير حواس النفوس
فلا تتغير كالأوراق التي تخضر في الربيع وتذوي في الشتاء
اجعليني جنة خضراء وكلليني بأ[illegible] ودوسي هذه الأعوام – الناس
في حاجة إلى هذه الأنغام الإلهية.

سيدتي
هذه تحية محب وثناء أضعه تحت أقدامك فأرجو
يبلغ ذلك المقام محبي

المخلص

السانحة الأولى

نحن الفتيات أسيرات الأزياء ، وعبدات التبرّج ، ولـُعَب الأهواء – أنكتب نحن فتيات اليوم ؟

نعم ، صرنا نكتب ليس بمعنى تسويد الصحائف فحسبُ بل بمعنى الانتباه للشعور قبل التحبير ، لقد خبرنا الاختلاء بذواتنا فأقبلنا على تفهم معاني الحياة نتفرس في المشاهد بأبصارٍ جديدة، ونصغي الى الأصوات بمسامع منتبهة ، ونشوق الى الحرية والاستقلال بقلوبٍ طروبة ، ونعبّر عن النزعات بأقلامٍ يشفع الإخلاصُ في تردّدها . إن الأمر لكذلك. وجرأتنا هذه لم تبدُ من اللائي سبقننا ، وإقدامنا لم يألفه الرجل من سوانا ، والجمهور يرقبنا بنظرةٍ خاصة تائقاً الى تصفّحِ نفس المرأة في ما تصِفُ به ذاتها وليس في ما يرويه عنها الكاتبون .

وما الغرض من ذلك ؟

يزعم الجمهور إن رغبته في تذوّق إنشاءِ المرأة لا تُعربُ عن إكبـــارهِ لذلك الإنشاء ، أو عن اقرارهِ بصدق الفراسة منهـــا . وإنما لأن في كتابتها مظهراً من مظاهر الذات النسائية العامة .

خطوةٌ صالحة نحو تكريم الأدب النسائي ، إلاّ أن فيها من الظلم وغمط الحقوق مـــا فيها . نحن نحبُّ الحلم ، ونطلب التساهل ، ونريد أن يستعان في الحكم علينـــا « بالظروف المخففة » — كما يقول سادتنا الحقوقيون . نريد ذلك لأننـــا مبتدئات . نريده لأننا مبتدئات ولأننا بنات يوم تشرق علينا شمسه نخلق أنفسنا بأيدينـــا ، ونكتشف الطرق في غابات مهجورة ، ونمهـــد السبُلَ بين الصخور والأدغال لنـــا وللآتيات بعدنا .

إفساح المجال علينا عسير . فنشكرُ للحليم تغـــاضيه عن القصور في عملنـــا وانتباهه لضآلة وراثتنا في عالم القلم — كما نشكر للناقد الكيّس ما يُبيّنه لنا من أغلاطٍ ناتجةٍ عن ضعف الفتاة وقلة اختبـــارها . ولكنهُ لا يجوز في شرع العدل والحقيقة ان تُـرمى جميع أعمالنا بالضعف النسائي وأن يطلق عليها الحكم بلا بحثٍ ومقارنةٍ .

لقد غالى بعض المفكرين ، لا سيما بعض الذين أقنعوا نفوسهم

بأنهم مفكرون ؛ لقـــد غالى هؤلاء في فصل المرأة عن النوع الإنساني الذي كادوا يحصرونه في الرجل . والواقع ان كل حميّة تهزُّ المرأة انمـــا تنطلق من النفس الإنسانية الشاملة ، وكلُّ نقص يشوبها انمـــا يرجعُ الى العجز البشري الشائع ، وكلُّ أثرٍ من آثار ذكائها انمـــا هو وجهٌ من وجوه الفكر الإنساني العام .

احرصي على قلبك

أرْخَى الشَّفَقُ سُدُولَهُ على الأرْضِ بَطِيئاً

ولَفْقَتْ حَوَاشي السُّحُبِ بِخُيوطِ الذَّهَبِ والفِضَّة،

وَتلاشى ما كانَ يَبْدُو كبُحَيْرَاتِ اليَاقُوتِ وبركِ الزُّمُرُّدْ حِيَالَ عَرْشِ الغرُوب ،

وغَشَتْ الأرضُ كآبةٌ رَبْداءُ ،

وغَشَتْ عَيْنَيْكِ كآبةٌ رَبداء ؛

أيُّ شمس تغيبُ فيكِ ، أيتها الفتاة، ولماذا يُشجيكِ المساء لتغشى عينيكِ هذه الكآبة الربداء ؟

ألا احرصي على قلبكِ ، أيتها الفتاة !

●

تجلـّت الشمس في الأوج تحت رواقِ الفلك ،

والأشعة تغازل الأزهار وتوسع المياه عناقاً وتلويناً ،
والمنازلُ تسطع كحجارة كبيرة من نور ؛
وانتعشت جميع الأشياء انتعاشَ من خرج من أزمةٍ وانفرج،
أما أنتِ فتلوبين جائعة عطشى ،

تقولين ما يجب ألاّ يُقال وتفعلين ما يجب ألا يُفعل ،
ثم تأسفين على القول والفعل وتعودين تلوبين —

ووراءَ المللِ والسآمة وهيجٌ فيكِ واحتدام ؛
اخبريني ما بكِ ، أيتها الفتاة !

لماذا أراكِ عند نافذتي ترقبين ما ليس بالموجود وتشتافين
ما ليس بالبادي ؟

وإذا تحولتُ عنكِ إلى مرآتي رأيتُ هنـــاك وجهك
مفجعاً حزيناً ؟

أهو أملٌ غزا نفسكِ فثقلُ على فؤادٍ منكِ اعتاد القنوط ؟
أم قرب تهليـــل الأمل يأسٌ ينتحبُ وشعورٌ بالفشل طالما
خالط الرجاء ؟

جميع الأشياء انتعشت انتعاش من خرج من أزمة وانفرج
وأنتِ أيُّ علـّة تضنيكِ فتلوبين وتتأوهين ؟

ألا احرصي على قلبك أيتها الفتاة !

●

جاء المساء مرةً أخرى ؛ جاءَ المساءُ وتبعه الليل
وعيناك قرب السراج جامدتان جمود من يتأمل جثة
فأشعر بأن شيئاً فيكِ أمسى جثة
لقد استسلمت لجمال المساء فطعنك المساءُ بسكينٍ منه سريّ
يقطرُ دماً وظلاماً
أخضعتِ نفسك لسحرِ الغروب ولم تحرصي على قلبك !
اما الآن وقد فرطتِ به فاحرصي على الجرح المنفتح فيه —
احرصي على جرح قلبك ، أيتها الفتاة !

ذكرى قلعة بعلبك

« معبد للأسرار قام ولكن صنعه كان أعظم الأسرار »

خليل مطران

تحرّك القطار صباحاً في محطة بيروت وهو يهدر ويزمجرُ ويقذف دخاناً كثيفاً أثقل الهواء وترامى على صفحة الأمواج فعكر صفاءها . وما فتىء زئيرهُ الهائل كزئير الأسود يترددُ في جوانب الفضاء حتى كاد الصدى منه ينتهي إلى أخربة بعلبك هامساً « لقد سبقتُ الآخرين لأهزأ بكِ ، يا اشباح البلى ، اهزأ بك في نقمتي على أناسٍ يستخدمونني أنا احدى آيات الاختراع الحديث ليزوروك – انتِ رمال الليالي الغاديات وبقايا الأيام الخوالي » !

وما لبث ان اسرع القطار في سيره متلوياً بين الأشجار ، وكأن سخطه هدأ تحت قبلات نسيم الجبال فخفّ زئيرهُ ؛

وتدرّج متسلقاً اكتاف لبنان يترك ُ محطة ً ويمرُ بأخرى حتى وقف في محطة صوفر ، وهي أعلى نقطة فوق وادي حمّانا — ذلك الوادي الذي قال فيه لامرتين انهُ أجمل أودية العـــالم القديم . هنـــاك تتطوّى التلال ُ كالأقمشة الحريرية وتمتد لمداعبة اطراف الجبال المحاذية ، تتناسق بينها دوائر أظلّتها الأشجار ، وتتخللهـا القرى ذوات المساكن البيضـــاء متوّجة بالقرميد الأحمر . وهناك ، هناك على الشاطىء البعيد ربضت الآكام كأسود تحمي بحراً بسط لديها زرقته ُ الفسيحة وارتفع عند الأفق كمن يستمدّ من الجوّ نعمةً ما . هذا وبيروت تستوي على شفة البحر استواء المليكة على عرشها .

ثم أخذ القطار ُ ينحدر الى سهول البقـــاع وقد قامت على جانبيها سلسلتا جبال لبنان وانتي لبنان كما تحدق اسوار الدهر بروج الأبدية . وبعد السير في السهل نحو ثلاث ساعـات تراءى لنا في عصارى النهار طيف ُ مدينة « باعال » يحيط بهـا نطاق سندسي من شجر الفـــاكهة والحور الرجراج ، وتتعالى فوق المنازل منها والحدائق أعمدة ُ هيكل الشمس بقدودها الهيفاء . أعمدة ستة هي كل ما سلم في وسط ذلك التهدّم ، وكأنهـــا من أبعادِ وحشتها تنادي المسافر قائلة : « تعـــالَ انظر إليّ أيهذا المارّ ، فهل عرفت حزناً أشد من حزني » ؟

بقيةٌ عظيمةٌ من عظمةٍ بائدة حيـــالها أضخم الأشجار أعشاب ، ذاك هو شبح المـــاضي المحـــاول تخليد الأصنـــام المعبودة ... وثلوج لبنان التي رأت يوماً من مدينة الشمس أبراج العزّ متعالية في الفضاء ، تطلُّ الآن من شاهق « فم الميزاب » و « ظهر القضيب » مستفسرة عن سرّ هدم المعابد والأبراج .

منذ ألوف الأعوام والثلوج تتراكم على هـــذه الذُّرى . فالشمس تشرق ثم تغيب ، والصيف يأتي ويذهب الشتـــاء ، وقلعة بعلبك موحشة في عظمتها المحطمة ؛ بينا ثلوج لبنان تطل عليها مستفهمة أيّ خطبٍ جرى ولكنها لا تفهم .

●

تجسّم حزني وجثا عند أعتاب القلعة باكياً . ولست أدري أبكي هناك أسفاً على أعجوبة الدهور أم اكتئاباً لمشهد درجات أوجدتها هناك يدُ الغريب .

عند مدخل هذا الهيكل الذي ألقت أسسه شعوب شرقية جاء الأجنبي يضعُ درجات توصلهُ الى معـــابد الشرق القديم . مشهد أفعم نفسي غمّاً كأن هذه الحجارة ثقـُلت عليّ لأنها دليل تدخـّل الغربيّ في قديمنا وجديدنا ، وعنوان طمعه في الاستيلاء على بلادنا . وكان أحرى به أن يتركـــنا وتراب هياكلنا الغالي

دون ان تأتي يده عاملة للترميم والإصلاح – ومدنسة ما قدّسته دهور البلايا وعزّزته بلايا الدهور .

دخلتُ امشي الهويناء بين اكوام الأخربة وبقايا الأبنية ، بين الأعمـدة المطروحة على الحضيض كالعمالقة ورؤوس الأسود المتعانقة في تهشمها عناقاً أبدياً ، بين آثار شعب لاحق تختلطُ بآثار شعب سابق ، والتراب يتراكم في كل مكان متجمعـاً في الأفاريز المرضضة والنقوش المحفّرة . مشيت في عالمٍ مشوهٍ من البدائع الفنية دهشة كيف سطا الزمان عليهـا ، كأنها غابةٌ هاجمتها الزوابع فكسّرت منها الأشجار ، واقتلعت الأصول ، وتركت الأغصان ملقاةً على حضيض الهواء .

أين من هذه الضخامة والمتانة قصور عصرنا وصروحه ! انها لتخال ألاعيب صبيـانية شيدت ساعة فراغ ولهوٍ ، فيها الحصى تقوم مقام الحجارة والأشبارُ منها توازي الأميال .

لقد تألّبت الشعوب على هـذا الهيكل فهاجمت جدران مجدهِ وخرّبت بديع معالمه . وحوّل المسيحيون جانباً منهُ إلى كنيسة فشادوا المذابح على قوائم معابد الأصنام . ثم انقلبت الكنيسة وما يحيط بهـا قلعة اسلامية حتى فاجأتها الزلازل فتخلجت منها الأسس وانهارت الجدران ، ودكت ذلك العزّ إغارات الطبيعة بعد أن طغت عليه يد الإنسان .

لكن آثار المجد في بعلبك ظاهرة باقية . والنفس العصرية تقف مترددة بين الهزء والاحترام أمام معابد آلهة خرافية تضحكنا الآن اسماؤها ، وتتعاقب عليها مشاعر جمة من خوف وشفقة وإعجاب وسخرية لتتغلب عليهـا عاطفة تضمّ في رحابها قوى النفس جميعـاً ، وهي الشعور بعمق السرّ العظيم ، سر البقـاء رغم الفناء ...

وهناك على مرتفع هيكل الشمس تقف أعمدة ستة حاملةً إفريزاً كأنه تاجٌ مكسّر تنحني تحته رؤوسها على وهدة عزّها المتفتت . ومـا انحنـاءُ تلك الأعمدة إلا رثاءٌ وتأبين ، بل هو التأبين الوحيد اللائق بهيكل بعلبك ...

وثلوج لبنـان التي تجهل أي خطبٍ جرى تنظر من علٍ إلى حزن الجماد الدهري وتودّ أن تفهم علة انهيار الجدران والأعمدة والأبراج وأنى لها أن تفهم ...

●

ألا كسروا باليـأس الأقلام ، وأزيلوا المداد عن الطروس ، وأسكتوا الشفـــاه المتكلمة ، وألجموا الأيـدي عن التحبير والكتابة !

رائحة الأكفان تفوح لدى هذا التهدم الشامل وتتكشف معاني

القبور ، وينتشر في الهواء عطر الجامر وتـُعقد غيومَ البخور ، وتعود الأيادي القديمة الى نحر تلك الضحايا والقرابين على أنصاب لاشتها يدُ الدهور .

كسروا الأقلام ومزقوا الطروس ! انما هذا موقف لا تأبين فيه بغير حزن الجماد ولوعة النفوس .

أحزن الجمـاد لا زلتَ للأفئدةِ مفطراً مـا طرحت عِبرُ الزمان الجبابرة على حضيض الهوان ! ألوعة النفوس ، لا زلتِ لاذعة ما بُترت سلسلة الآجال واعتلت حركة القلوب ! أآثار الحياة ، لا زلت عاليـة كآمال المنى وسواد العيون مـا ذوت الآمال بالمتأمل وما بيّض سوادُ الموتِ سواد العيون ! أأعمدة بعلبك ، لا زلتِ مهشمة ، صامتة ، منحنية ، كئيبة ما سعى دبيب المنى في زوايا المهج وتمايلت أشباح الآلام والأوجاع طيَّ القلوب والصدور !

إذا هزأ الدهر بهـــذه الجدران المنيعة فماذا أنتم من الدهر منتظرون ؟ إذا مرت قدمُ الدهر على هـذه المتـانة الحصينة فهرستْها هرساً فماذا تعني بعد ذلك حركة قصبتـكم الضئيلةونقش طروسكم البـالية ؟ أين من المسافة موضعهـا وما هو من الخلود نصيبها ؟

ضموا إلى شفـاهكم الأقـلام وإلى قلوبـكم الطروس ، دعوها

تنطق يأساً وحباً باسم قلعة بعلبك . ثم حطّموها وإن عزّت، ومزّقوها وإن كانت شطراً من الأرواح .

الزمان يتابع المسير فويلاً لتربة تدوسها قدمه ! هناك تزلزل الزلازل ، وتهدم السدود، وتطغى البحار، وهناك يشعر الإنسان بأنهُ عبد لحظات الأقدار وأنهُ لا يعرف من أسرار الأرض غير اسوداد الليل وابيضاض النهار ...

(كتبت في أواخر سنة ١٩١١)

قتل النفوس

رأيتها تنظر إلى الأشجار بعينين كئيبتين وشفتاها مطبقتان كأن قبلة الأسف طُبعت عليها . كانت لي رفيقة في الصغر : تعلمنا شهوراً في مدرسةٍ واحدةٍ ، ودرسنا أمثولةً واحدةً ، وسمعنا إرشاداً واحداً ، وكبرنا فكانت تلك العلاقة الواهية متينة بيننا .

قلت « ما لي أراكِ حزينة » ؟

قالت « يحزنني الربيع »

قلتُ « اخبريني ما بكِ » !

قالت « يحزنني الربيع. يحزنني أن أرى مواكبه الجميلة تسير في الفضاء فلا يراه البشر إلا من كوى ضيقة نُقبت في الجدران الحديدية التي أقامها المجتمع حول الأرواح . ويحزنني ألا أكون مستقلة بكوّتي وأن يكون للآخرين حقوق عليها يفتحونها ويغلقونها كيفما شاؤوا لا مثلما أريد » .

قلت « ماذا يحزنك » ؟

قالت « يحزنني الربيع . تحزنني هـذه الأزهار الزرقاء والصفراء والحمراء . انها تنوّر على أطراف الأغصان وتبرز جمالها وسط جمال الكون . انهـا تستنشقُ الهواءَ بكل ما فيها من قابلية وتتمتع بالحياة بكل ما فيها من استعداد . فلماذا قُدّر على بني الإنسان أن يكونوا دون النبات حريةً » ؟

قلتُ « قولي لي سبب حزنك » ؟

قالت « مسألة تافهة أعادت اليّ التأمل في هـذا الصباح كما نبهته فيّ قبل الآن . لي شقيقة تقطن الاسكندرية مع زوجها — ولي بها ولها بي ولع عظيم فنتكاتب مرةً في الأسبوع . على أن تمرّ رسائلهـا تحت نظر والدي ووالدتي وأخي وأختي وأخي الأصغر حتى تنتهي إليّ بالتـالي لأنني أحدث افراد العائلة سناً . ولا يُلقى خطابي اليها في صندوق البريد إلا بعد أن يطلع عليه وينتقده ذويّ . مع ان مراسلتنـا عادية ساذجة ، لا أهمية لهـا إلا بكونهـا جزءاً من حياتنـا . وليس لديّ من سرٍّ أخفيه ولكني أريد ان احفظ حقي في أن يكون لديّ أسرار . وهذه المعاملة تعذبني منذ شهور لأنهـا تنمّ عن ضعف ثقتهم بي وأنا لم افعل قط مـا يستوجب سوء الظن . وصرتُ أتألم كلما وردت إليّ رسالة لأنها تذكرني بأن في بيتنا قلم مراقبة منظم » .

ورفعت رأسها ناظرة إلى الزهرات الفرحة بأنفاس الربيع

وأرسلت زفرةً عميقة ، ثم قالت « معاملة كهذه تحملني على الشك في صلاحي وكرامتي . وقد يدفعني الغيظ والكبرياء الى فعل ما لا أفعله لو كان لأهلي بي ثقة . النبـــات حرٌ فلماذا لا يكون الناس أحراراً » ؟

مسألة تافهة في ذاتها . ولكنها تتكرّر بين الوالدين والأبناء فتفضي إلى أحد اثنين : التمرد أو العبودية وكلاهما سيء . بل العبودية وحدها ممقوتة والتمرد نبيل في الغالب يدلُّ على القوة والحياة . ولكن كثيراً هم الأبناء الذين يجدون ضغط الوالدين على حريتهم أمراً طبيعياً فلا يتألمون لأن نفوسهم عقيمة قاحلة لا ينموا فيها غير الشوك والعوسج .

يتألفُ التهذيب من أعمال وحركات متتابعة مدة أعوام بين الآباء والأبناء كما يتركب تمرين الأعضاء من حركات مستطردة يأتيهـــا الفرد في أوقـات معينة فتكسبه خفةً ورشـاقة وانتظاماً .

وإن لم يروّض المرء اعضاءَه ضعفت وأمست ضخمة الشكل بطيئة الحركة ، وقد يذهب به الجمود الى فقد الصحة . فما الخلل الذي نراه الآن في تربيتنا إلا نتيجة جمود الأعضاء المعنوية من نشء الأجيال الماضية ولأننا جميعـاً عبيد الجهل المقيم والضغط القديم .

لمـاذا تراقب مراسلات الفتيـات ؟ سمعتُ عن رجل ينهي

شقيقته عن مراسلة صديقة لهـا خوفاً من أن يطلـع أخوها على تلك الرسائل ؛ ثم اتصل بي ان ذلك الرجل الذي يظن نفسه حراً أبياً (؟!) يقضي ليله وشقيقته هذه حول طاولة البوكر مع شبـــان آخرين وفتيات أخريات ؛ ورأيته وإياها يحتسيان الجعة في حانة يتصاعد في جوانبها لهاث السكارى ؛ ورأيته فيما بعد داخلاً بهـــا عارية النحر والذراعين الى المرقص لتنتقل على وفق الإيقاعات الموسيقية من يد رجل الى يد آخر . فضلاً عما يجيزه « تمدينا » الحديث من مداعبة كلامية يسميها الغربيون « فلورت » ويستعملها كثيرون منا دون أن يحاولوا ايجاد اسم لها .

فكيف نوفق بين النقيضين ؟ بين التساهل في قبول العادات الأوربية المتفشية بيننـا وبين الاستعبـــاد الشرقي الراكد في مستنقعات نفوسنا ؟ ان هـذا الخلل في توازن التربية يعذب الشبيبة ويجعلها أليفة الحيرة والتردد جاهلة بها قيمة الحياة . انما الحياة في قيمة ننسبها اليها . فكيف نهتدي الى قيمة الحياة التي لا تبرز إلا للمنتبه المتيقظ الواثق من حريته في القول والعمل — كيف نهتدي اليها في هذا التناقض المبين: تناقض الضغط الشديد والتهور الجازف ؟ .

●

انما التربية ترمي الى غاية واحدة هي توسيع دائرة الحياة

وتأهيل الفرد للسير بحذق والتصرف باعتدال بين تشعب الشؤون مستخرجاً وسائل السعادة والفائدة مما يحيط به . فإن لم تكن هذه الغاية نصب عيون الوالدين ولم تثقف الناشئة على مبادىء التهذيب القويم فقدت آمالنا بالمستقبل القريب . وأول قواعد التهذيب معرفة الواجب ، وشرط معرفة الواجب الشعور بالحرية .

أقول الحرية وأعنيها ، وهي ليست الإباحية كما يزعم كثيرون . والفرق بينهما أن للواحدة حدوداً تهدمها الأخرى وتتجاوزها .

على الوالدين أن يقوموا بما عليهم نحو الأبناء ثم فليتركوهم وشأنهم يأتون ما يميلون اليه والضمير الحي يراقبهم والخلق القويم يحميهم. فإن جاء عملهم بخير كان فيه تعزية وتشجيع على المثابرة والإقدام ، وإن جاء بشرٍّ كان أمثولة مفيدة ومادة اختبارٍ ينتفع بها في الكوارث والرزايا المالئة سبل العمر .

كل امرىءٍ يحيا حياتهُ وعليه أن يجد طريقهُ بين متشعب المسالك ، وهو مسؤول عن كل عملٍ يأتيه ويتحمل نتائجه ، انْ فائدة وإنْ أذىً. فالفتاة التي اعتادت الانقياد لآراء والديها وعجزت عن اتيان عملٍ فرديٍّ تدفعها اليهِ ارادتها بالاشتراك مع ضميرها ، ما هي إلا عبدة قد تصير في المستقبل « والدة » ولكنها لا تصير « أماً » وإن دعاها أبناؤها بهذا الإسم . لأن

في « الأمومة » معنىً رفيعـــاً يسموا بالمرأة إلى الإشراف على النفوس والأفكار؟ والعبدة لا تربي إلا عبيداً. ولا خير في رجالٍ ليس لهم من الرجولة غير ما يدّعون، ان هم سادوا فعلوا بالقوة الوحشية وهي مظهر من مظاهر العبودية. أولئك سوف يكونون أبــداً أسرى الأهواء وعبيد الصغـائر الهابطة بهم إلى حيث لا يعلمــون، الى الفنــاء المعنوي، الى الموت في الحياة.

تربيتنا الناقصة جعلتنا نسيء الظن في كل شخصٍ وفي كل أمرٍ. ريح سموم تهبُّ على المجتمع فتصبغ الجو وما يحويه بلونٍ قاتم خبيث. ولو أنصف النـــاس لحكموا على بعضهم بعدلٍ وصدقٍ فأراحوا واستراحوا. الخـير أصلٌ في الحيـاة وليس الشرُّ شراً إلا لأننا أشرار، ولا ظلام حولنا إلا الظلام المنبثق من شكوكنا وأحزاننا ومطامعنا.

احتياجنا شديد إلى مثل هذه الكلمة « ثقوا بالإنسان » !

اما جاءكم خبرُ ذلك العالم الألماني الذي كان يدفع إلى ابنته البالغة من العمر ١٦ سنة رسائلها مختومة. ولمـــا لامهُ أحدُ أصدقائه أجاب « ثقتي بالفطرة النسائية عظيمة. لا أقرأ رسائل ابنتي بل أعرض عليها رسائلي. وعوضاً عن أن أشحن دماغها بآرائي ونصـائحي التي قد لا تتفق مع ظروف حياتهـا أسألها

رأيها في كل مـا يشكل عليّ من الأمور . فالمرأة أوفر من الرجل نبلاً لأنهـا أقرب منـه إلى سرائر الأحوال وقلب الأشياء » .

مع هـذا الرجل الحكيم أقول « ثقوا بجوهر المرأة ! ثقوا بابنة اليوم تجدوا أبناء الغد أهلاً للثقة » !

(ابريل سنة ١٩١٣)

رسائلنا اليوم وبالأمس

بعض الأوامر السلطـــانية تستوقف نظر الأديب برشيق أسلوبها وبليغ إيجازها . منها الأمر الذي صدر بتعيين صاحب العزة محمود فخري بك[1] أميناً أول لعظمة السلطان. وما دامت سراي عابدين تهتم بأساليب الإنشاء فحقّ لمحبي الأدب أن يرجوا . ولو كنت رجلاً وجاز لي البحث في ما يختص بالرجال لتمنّيْتُ لدواوين الحكومة أن تحذو حذو السراي السلطانية فتتوب عن اللغة والأسلوب السقيمين المستعملين في أوامرها ومراسلاتها .

اسمعك مزمجراً يا سيدي الرقيب ، وقد اقترب قلمك من جملتي هذه يقصد الفتك بهـا . فاصغ إليّ غير مأمور ! لا أنت جندي ألماني ولا أنا جندي فرنسوي ولا هـذه الصفحة كنيسة

---

(١) حضرة صاحب المعالي محمود فخري باشا .

ريس . فكن حليماً ولا تحذف منها شيئاً . ثم أرجو أن تذكر أني بدأت تلك الجملة بكلمة « لو » ، وهل أنتَ مَن يخفى عليه قول الفرنسيس بإمكان وضع باريس في زجاجة اذا ما استعملت كلمة « لو » ؟ ولا أظنك محتجاً على وضع باريس في زجاجة ، على شريطة أن تكون الزجاجة غير ألمانية تملأ بالغازات السامة. وإني لموافقة على ذلك . وكل هذا الكلام أقوله لأنسيك شطب تلك الجملة الأثيمة — أنساكها الله !

●

لقد تحسن فنُّ الإنشاء في أيامنا . بالأمس كانوا يكتبون طويلاً دون أن يقولوا شيئاً إذ لم يكن معظم الرسائل غير استعارات محفوظة وأسجاع مرصوصة . فبعد « غب الشوق » الأصولية كان مراسلك يبعث إليك « بسلام، لو كان ذا أجسام لملأ الأرض بالتمام » — دون أن يترك للأرض هامشاً ! و « بتحيات أزكى من النعامى (أو من « نَفس النعـــامى » لا أدري) بين ورق الخزامى » . كذلك يبدأ الخطاب بالسلام والتحيات والأشواق ويختمه بالأشواق والتحيات والسلام .

أما الآن فأخذنا نكتب لنعبّر عن شيء نريد أن يفهمه مَن نخاطب . فإذا اطلعت على رسالة تيسر لك الحكم على ذوق كاتبها ومعارفه ودرجة تربيته ومكانته الاجتماعية . فأخذ ينطبق علينا مبدأ « الإنشاء هو الشخص » .

غير أن أهل الذوق وُجدوا في كل آن وزمان . وبينا كان الجموع يملأ صحيفة الرسالة بالمبـــالغة والإغراق كانت الخاصة تكتب كتابة الإيجاز والبلاغة . كلٌّ منا يعرف رسالة المتنبي إلى صديق كان يعوده في مرضه فانقطع عنه بعد الشفاء فكتب اليه المتنبي يقول : « وصلتني ، وصلك الله ، معتلاً ، وقطعتني مبلاً. فإن رأيتَ ان تحبب العلة إليَّ ولا تكدر الصحة عليَّ ، فعلتَ ان شاء الله » .

وتـُحسب هذه الكلمة من بدائع الإنشاء .

لقد كان خاصة العرب أهل ذوق وكفاءَة . فاحرِ بنـــا الاحتفاظ بجميل الموروث بينـــا نثقف أفكارنا وأقلامنا على نافع المكتَسب .

(١٩١٥)

بين الدكتور شميل

والكاتب الأمريكي

منذ شهرين تقريباً نشر الدكتورشبلي شميل رسالته إلى العالِمَ الألماني هكـّل ، باللغة الفرنساوية ، وأردت أن أعرف رأي الأجانب في الرسالة ومؤلفها ، فبعثتُ بهـا إلى كاتب أمريكاني زار مصر وأحب وادينا حبـاً جماً . وشفعت الرسالة بتفاصيل عن الدكتور وأطواره الغريبة التي تجعل له شخصيتين تـكاد الواحدة منهما تناقض الأخرى . وأخبرتهُ أن الدكتور شميل غاضب على الأمريكان لأنهم لا يساعدون الحلفاء على دحر ألمانيا ، وإنه يقول عنهم انهم أنانيون . فجاء الجواب وها أنا أنشره ضاحكة ، لأنه يهمني كثيراً أن يتخاصم الرجلان وهمـا على مسافة ستة آلاف ميل بين الواحد والآخر :

« قرأت باهتمام مـا كتبتِه عن الدكتور شميل ورسالته

إلى هكـتل ، وسأبـعث بنسخة من هـــذه الرســالة إلى المستر روزفلت .

يسرني وجود رجل كالدكتور شميل في الشرق لأن هــذا الرجل لازم لهدم الأفكار القديمة التي يتقبلها الناس بلا بحث ولا جدال ، كأن ليس لأفكارهم أهمية إلا بقدمها . أفكار يزيد في ثقلها صدأ الأجيال ويحاول حفظها التعصب الذي يحيط بها بقوة ودقة كأنه نسج العنكبوت . فأمثال الدكتور شميل يمزقون خيوط العنكبوت ويبيدون الصدأ وقاعدته دفعة واحدة ، ولا بأس من هيجان الجموع لهذه الفوضى، فهياجه ضروري بل لا بد منه . أمثال الدكتور هم العنصر الهادم ما في الجمعيات والأديان من الغلو والإفراط ، وهم فاتحو الطريق للذين سيقيمون أسساً جديدة ملائمة لمطالب العصر ومعارفه . والآخرون لا يتمكنون من العمل إلا إذا عمل قبلهم الأولون .

تعجبين لماذا لا يشيد الدكتور شميل أثراً مكان الأثر الذي يهدمه . لكن لا عجب في ذلك . اذكري ديكارت تعلمي أن الأمرين لا يُطلبـــان من رجل واحد . فالطبيعة وحدها مدمرة معمرة .

أما ما في أخلاق فيلسوفكم من التناقض فلا بد أنه راجع إلى الوراثة ، ثم بالظروف . لا بدّ أن يكون الدكتور عنيف الطبع حاد المزاج ، ولهذا الخلق جماله . على اني أحب الخلق

الهادىء الذي يترك الآخرين يتخاصمون حتى اذا ما سمع ما يقولونه من الحقائق والخرافات أعرض عن التافه من أقوالهم وتمسك بالصواب . فلا يتحول عنه ، بل كلما مرت الأيام زاد به ثقة وحباً .

« لا أدري لماذا يقول الدكتور شميل أن الأمريكيين أنانيون . هل عرف حضرته بعض أبناء وطني فحكم على أمة لأجل أفراد ، أم هي فكرة تناقلتها الألسن والأقلام فأثرت في فكره ؟

« ما هي البينات التي تقنعه بأن الأمريكان أكثر أنانية من غيرهم ؟ أود أن أسأله إذا حلت على العالم الويلات فمن يسارع إلى المساعدة قبلنا ، ومن يفتح قلبه وكيسه قبل أبناء أمريكا ؟ كم من الملايين أرسلت إلى الحلفاء في هذه الحرب الطاحنة ؟ غذاء بلجيكا وكساؤها يذهبان من وراء البحار وأمريكا ترسل اليها ٣٦ مليوناً شهرياً . بعض السيدات من أجمل نساء أمريكا تركن أزواجهن وأولادهن وذهبن لمعالجة الجرحى في ميدان القتال . الرجل الأمريكي أحسن زوج في نظر الفتاة الإنجليزية ، لا لأنه أناني ، بل لأنه يحترم المرأة ويعترف بمواهبها العالية ويعاملها المعاملة التي تستحقها رقتها وسمو عواطفها . أعظم المستشفيات في باريز أمريكية وينفق عليها من ثروات أمريكية فردية . قد يرى الدكتور شميل في كل هذا أنانية ، ولكنها أنانية كريمة جميلة » .

« العالم الجديد جديد في كل شيء . اختباره ، واعتقاده ، وعمله وأسلوبه ، وحريته . ولكن ليس فيه الأنانية التي تظنون .

« تضحكين من أمريكا لأنها تبعث باحتياجاتها يمنة ويسرة . وأنا أضحك . صحيح اني لا أريد أن أكون في موقف الدكتور ولسن في هذه الأيام . ان هذا الرجل المسكين لا يدري على أي رجل يرقص بين عشرة ملايين من الأمريكان الألمان المحتجين في اذنه اليمنى ، وباقي ملايين الأمة المحتجه في أذنه اليسرى ؛ هذا مع حالة المكسيك الحاضرة التي تكاد تشتعل اشتعالاً » .

« أمريكا رغماً عن شعبها الألماني الأصل تجاهر بميلها إلى الحلفاء بلا خوف ولا تردد . لا أعني الحكومة بل الشعب . هناك أمر لا يحتمله أمريكاني حرٌ ربي على فكر الحرية وشرب لبنها كما شربه من قبله آباؤه — وهو مهاجمة بلجيكا وغزوتها . هذا لن نغفره لألمانيا قط » .

« قولي هذا للدكتور شميل إذا شئتِ . واسأليه أن لا يصدق كل مايكتبهعنّا كتّاب فرنسا وانجلترا كما اني لاأصدق شيئاً مما يكتب عن الشرق والشرقيين . قولي له ذلك واهديه احترامي » .

ها أنا قلت لك ذلـــك وأهديتك احـترامه مشفوعاً
باحترامي ، يا سيدي الدكتور . أفعل ذلـــك مترقـّبة ً بعض
صواعقك عربية كانت أم فرنجية ، فقد أوحشتنـــا كثيراً
نارها العذبة . (١٩١٥)

نقلت جريدة « الأخبـــار » فقرة من هـــذه الرسالة

فأرسل أحد القراء إلى الجريدة الاعتراض التالي :

الأفكار القديمة

ومراسل الآنسة مي

مكاتب حضرة الآنسة مي الذي نشرت الأخبار شيئاً من كلامه نقلاً عن المحروسة . لا نعرف منه سوى انه « مسرور من وجود مثل الدكتور شميّل في الشرق لأن هذا الرجل لازم لهدم الأفكار القديمة التي يتقبلها النـــاس بلا بحث ولا جدال الخ » فنهنىء حضرة الدكتور بهذه الحظوى — ولكنـــا نأخذ على حضرة الكاتب خوضه في مثل هـــذا الموضوع الخطير بكلام خيالي شعري هو من الإبهام بحيث لا يفيد إلا التضليل وامتهان النفس بأشرف عاطفة فيها .

تدل القرائن على أن حضرة الكاتب يريد « بالأفكار القديمة » العقائد الدينية كالإيمان بإله كامل سرمدي الخ . مثلاً مما تخضع له العقول على سموّه وعجزها عن فهم كنهه . فمثل هذه الأفكار على قدميتها – ثابت على أقوى الأساس والبراهين التي طالما احتك بها المتفلسفون وصقلتها الأجيال فلم تزدها إلا إرهاقاً .

وأنا وايم الحق لنستغرب من الكاتب امتعاضه من تلك «الأفكار» ورميه ذويها بالجهل والتعاسة وافتتانه بالآراء الحديثة وادعاءه لها أرجحية الثبوت والوضوح . ونحن نرى العلماء يتنازعون فيها ولا يزالون ينقضون اليوم ما بنوا أمس على حين تراهم هم أنفسهم يزدادون كل يوم تمسكاً بتلك الأفكار التي يدعوها حضرة الكاتب قديمة . ويجاهرون مفاخرين بتمسكهم بها كنيوتون وأراجو وباستور وأمبير وغيرهم كثيرين ممن يحسبون أئمة في العلوم .

وإنا لندهش من أن مراسل الآنسة مي يحرم نفسه الآن لذة التمتع بمشاهدة ما تتجلى به الأفكار الحديثة من مظاهر الرقي وتهذيب الطباع وتلطيف الهمجية القديمة باستعمال الغازات السامة وطرق القرصنة وأساليب صب البلاء على الأبرياء والضعفاء فضلاً عما أفادت الألمان – وهم أخص مروجيها

ودعاتها — من القدرة التي سمت بهم إلى قتل الأسرى والفتك بالأحداث والشيوخ والنساء .

فأحر الكاتب الغيور أن يذهب إلى ميادين القتال هناك ويساعد الألمان في هدم معاهد تلك الأفكار القديمة ومعاقل تلك المعتقدات الدينية التي أثقلها صدى الأجيال كريس وشقيقاتها . ولا يخفى أن المجال هناك رحب لغيرته فهذه « الأفكار القديمة » تتجلى الآن بأبهى مظاهرها في فرنسا في الخنادق والمعابد والمعاهد والمعسكرات حيث تقام الشعائر الدينية ويجهر الجميع بالصلاة . ولم يفت أصدقاء الكاتب في مصر الوقوف على شيء من مظاهر هذه الأفكار في وفاة ومشهد الجندي لروى ومن كلام الكولونل موكور الذي أبنه بألطف كلام وسكب على جراح ذويه بلسم التعزية بذكر وفاته المسيحية متزوداً الأسرار المقدسة .

ويحسن في هذا الصدد أن نذكر ما نقل عن العلاّمة الافرنسي الشهير اميل اماجات الذي خسرته العلوم ونعته فرنسا الى العالم حديثاً وهو أحد أعضاء الجمعية العلمية في باريس والجمعية الملكية في لندن له المباحث الخطيرة والاكتشافات النافعة في كثير من فروع العلوم الطبيعية . فهذا الفقيد لما اشتدت عليه وطأة المرض استدعى الكاهن وقال له : « طلبتك

لتؤهلني للحضور أمام الله . أموت مؤمناً بكل مـــا تعتقد به الكنيسة الكاثوليكية ... قد كان لي ديني راية ، يعلم الله اني ما دنستها بما يشين لأجل مجد أو مقام » .

أفلا يخجل حضرة الكاتب من امتهـانه الأفكار القديمة والعقائد الدينية ورميه بالجهل الناس الذين يقبلونها بلا بحث ولا جدال . وهو يرى أمثال اميل اماجات متمسكين بهـا منتمين بكل افتخار إلى الكنيسة التي تعلمها ؟ « ب . ر »

الى حضرة ب . ر

أشكر لحضرة معترض جريدة « الأخبار » اهتمامه بما نقلتُ عن الكاتب الأمريكي . وما كنت لأزعجه بجوابي هذا لولا اني شعرت في رده بشيء من سوء التفاهم بيننا . فإما أن تكون « الاخبار » نسيت سهواً نقل الجملة كما هي فأستأذنها بالإشارة إلى ذلك . وإما أن أكون أسأت التعريب – وهذا هو الأصح – فوجب عليَّ الإصلاح قدر المستطاع .

لست بمناقشة ، لأني يوم عرَّبتُ رسالة الكاتب الاجنبي لم أكن ناشرة إلا رأيه دون رأيي . ولا أنا بمعترضة على قول حضرة ب . ر . ان الكاتب أخطأ إذ خاض في الموضوع « بكلام خيالي شعري » . أولاً لأن الرجل ليس شاعراً . ثانياً لأني أضطر آنئذٍ ان أذكّر حضرة ب . ر . ان التوراة والإنجيل الشريفين مكتوبان بأسلوب شعري خيالي . ففي التوراة يفيض الشعر فيضاناً جميلاً من مزامير داود إلى نشيد

سليمان ، إلى سفر أيوب ، إلى نواح ارميا . وأما الإنجيل فمملوء بالرموز والإشارات كما انه مملوء بالتعاليم العالية المؤدية إلى الكمال الاسمى . والسيد المسيح نفسه قال انه يتكلم بالرموز ويضرب الامثال .

على اني أستأذن حضرته بإلفاته إلى قول الكاتب الاجنبي ان « أمثاله (الدكتور شميل) يهدمون ما في الاديان والجمعيات من الغلو والإفراط » . هذا صريح لا يحتمل تدليلاً . فهل « الغلو والإفراط » يعنيان الإيمان بإله أزليٍّ سرمدي ؟ كلا . ان هذه الفكرة العظيمة أم العقائد الدينية وغير الدينية جميعاً . انها ملازمة لفكرة الخليقة ملازمة لا تقبل انفصالاً . وسواء دعيت تلك العناية المثلى « هو وهي » كما يدعوها الإسرائيليون القدماء ، أم الله ، أم الطبيعة ، فهي هي ، وما كان البشر إلا معددين لها الاسماء والالقاب . « وأصدقاء » الكاتب الاجنبي يؤكدون لحضرة ب . ر . أن الرجل مؤمن بالله . فلماذا لا يكون « الغلو والإفراط » في التجاء امرأة ضاع منها منديلها مثلاً ، إلى القديس أنطونيوس تستحلفه بأمه وأبيه أن ينزع منديلها من أيدي الشياطين ويضعه في جيبها مباشرة ، وذلك بمقابل بخور بكذا قروش تهديه اليه في الغد . ولماذا لا يكون « الغلو والإفراط » في التجاء السيدات المسلمات إلى « الزار » والمشعوذين . ولماذا لا يكون « الغلو والإفراط » في حرق المرأة الحية قرب زوجها الميت عند الهنود ؟

أظن أن مثل هذه الاعتقادات الصبيانية والعادات الفظيعة تستحق نعت « الغلو والإفراط » .

بعد خطة الدفاع يتخذ حضرة ب. ر. خطة الهجوم فينتقل دفعة واحدة من الدين إلى الحرب . واعترف بأن هذا الهجوم الفجائي يدهشني بعض الدهشة ، وهو يعلم أن لا دخل للدين في حروبنا اليوم . نعم انهم يفتتحون الحرب باسم الله ، وينادونه إلى الاخذ بيـــدهم ، ويملقونه — وهو الرفيع عن كل تملـّق — قائلين : أنت إلهنا وأنت معنـا. حتى إذا ما أفنوا حيـاة ُسمِح بأن تكون ، وهدموا دياراً ُسمح بأن تـشاد ، ومزقوا أجساداً وسحقوا قلوباً عادوا إلى كنائسهم ومعابدهم ، وجثوا أمام الإله العظيم إله الرحمة والحب والإشفاق ، وأنشدوا : « إياك اللهم نعظم » ! ان الاديان لتبرأ من فظـــائع الحروب ولا تجوّز إلا الدفاع عن الوطن إذا هاجمه الاعداء . ولكن جميع النفوس لا تفهم الأديان كما هي ، بل كل منا يفهم دينه حسب درجة عقله وميول قلبه . ولا يقتصر البشر على الإيمان بالعــقائد الدينية الأساسية بل يتعصبون لاعتقادات أخرى إضافية لم تكن إلا اختراع التعصب والجهل . وكثيراً ما يستفيد رؤساء الشعب والحكومات من هذا التعصب فيشهرون الحروب ، ويقودون الشعب المسكين إلى حيث لا أثر للدين ، ولا منفعة لغـــير السياسة .

فان استعمل الالمان وسواهم العلم وبذلوا كل ما لديهم من معرفة وحيلة في سبيل قهر أعدائهم ، فهل هـذا يعيب العـلم ؟ الطب عائد بالخير على الإنسانية ، فهل إذا دس طبيب لعليله السم لغرض من الاغراض فسدت منفعة الطب ووجب علينا أن نحسبه من حيث طبيعته شراً ؟ هذا العلم الذي هو آلة شر وفناء في يد ألمانيا وغيرها الآن كان وما زال آلة خير وحياة في يد ألوف من الافراد وعشرات من الشعوب . لذلك لا يتحتم أن يكون المؤمن جاهلاً . فالدين شيء والعلم شيء آخر . الدين مهذب شخصيتنا المعنوية والعلم ضرورة من ضروريات حياتنا . هذا للزمـــان وذاك للأبدية ، وليس لأحدهما أن يلاشي الآخر .

يختم حضرة ب . ر . مقاله كمن يتساءَل ألا يخجل الكاتب لأنه لا يعتقد اعتقاد اميل اماجات ؟ لست أدري ، يا سيدي ، لأني لم أسأله بعد. ولكني أعتقد أن الدين علاقة سرية بين الخالق والمخلوق ، أعتقد أن كل امرىءٍ يلاقي نتيجة أفعاله ولا يتحملها عنه أحد ، أعتقد أن الله منح البشر حريتهم - اسمـــح لي أن أذكر الحرية بلهجة غير لاهوتية – فعلى كلٍّ أن يرى وجهة الخير أمامه ، ويعبد ربه ويخدمه كيفما شاءَ. ما دام الله سامحاً بذلك، لماذا لا يسمح به الناس ؟

أما الدكتور شميل الذي تفضلت وهنأته « بهذه الحظوى »

فلست أعرف كيف تقبلها وإذا كان إعجاب رجل أجنبي أو شرقي يهمه كثيراً. ولكني أعرف أن اسمه من الاسماء التي سيفتخر بها الشرقيون دواماً سواء أكانوا مؤمنين أو ملحدين. لم يكتب ضد الدين أحدٌ أكثر من فولتر ورغم ذلك فمقامه الادبي محفوظ حتى لدى المتديّنين، ويفاخر أبنـــاء فرنسا بأن ينعتوا لغتهم باسمه فيقولون عنها «لغة فولتر».

(١٩١٥)

سلام الله يا مطر عليك

قلبتُ الشطر وغيَّرتُ منهُ المعنى لأنصفك ، يا مطر الجوّ ، وأثأر لك من الشاعر العربيّ . وسواء أعنَـاك في شعره أم عنى رسولاً اسمه « مطر » ، أم جعل الكلمة الواحدة في الشطرين تعنيك مرةً وتعني الرسول أخرى – فأنتَ ، يا مطر الغيوم ، مظلوم . وما أظلم الشعراء يوم لا يرحمون !

وما ذنبكَ أنت المنفعل وإن خلناك فاعلاً – ما ذنبكَ إذا امتصتك الشمس من البحر بخاراً ، وعقدتك في الجو سحاباً ، ثم تفجَّرت السحب وتدفقت سيولاً تروي السنابل والاشجار ، وتذبل الانبتة والازهار حيناً في انتظار ربيع يحبوها من جديد بنضرة الشباب وسحر الحياة ؟

وما ذنبكَ إذا أبطـأ الرسول مطر في رسالته – فلعلَّ له في طريقه ليلى تحدثهُ ؟ وما ذنبك أن لم يُعد مطر الرسول إلى

الشاعر بجوابٍ مرضيٍّ من ليـــلاه ؟ وهب انك هطلتَ قبيل اجتماعها المنتظر فكنتَ بينها حائلاً — فما ذنبك ؟

سخط الشاعر وسبَّك بالأوزان والأسجاع على نحو ما يكون سباب الشعراء ؛ ولكنه إذا كان شاعراً صميماً فما لبث أن هدأ سخطهُ ، وفكر في شعوبٍ جائعةٍ تنتظر منك ارواء غليلهـــا وضمانة قوتها .

ولكن لعلّ الشاعر كان مصرياً فما استطاع أن يرى فيك ما تراهُ شعوبٌ ليس في ديارها نيل كريم يفيض بدموع الآلهة فيغنيها عن منافعك وأضرارك ؟

يحق لبعض المصريين ، من جانبٍ آخر ، ان يقروا الشاعر القديم في قوله « وليس عليك يا مطر السلامُ » ، يحق لهم ذلك إذا ما رأوا الأحياء غير الأوربية في هــذه المدينة . والأحيــاء الأوربية وغير الأوربية من الامور التي تسوسها مصلحة التنظيم . ومصلحة التنظيم — كما تعلم أو كما لا تعلم ، ايها المطر — دائرة من دوائر الحكومة . فإذا ذكرناها بغير الثناء والتعظيم والتبجيل كان نصيبنا منها نصيبك من شاعر ليلى — على الأقل !

(١٩١٦)

بين الأدب والصحافة

تساءَل مستر برسي هوايت في احدى محاضراته الأخيرة بالجامعة المصرية : هل الادب والصحافة واحد ؟ وما لبث أن أجاب نفسه قائلاً : « كلا ّ ليسا واحداً . قد تلامس الصحافة الراقية ، في بعض موضوعاتها ، المعاني الادبية العالية فتوسم بوسمها وتؤثر تأثيرها . لكن الصحافة ، بوجه الإجمال ، تختلف عن الادب من حيث الغرض والمرمى والتأثير » .

بينا كان الاستاذ يبسط رأيه كنتُ أضاحك نفسي قـائلة : قد يكون هذا رأيكم ، أيها الغربيون ، لكن الأمر عندنا على غير ما تذكرون. عندنا إذا كتب المرء مقالات قليلة في الزراعة مثلاً، حاز دفعة واحدة جميـع الألقاب الكتابية المدوّنة في القاموس فأصبح كاتباً مجيداً ، أديباً أريباً ، مفكراً مبتكراً ، شاعراً فذاً ، خطيباً مفوّهاً ، سياسياً محنكاً ، عالمــاً علاّمة وبحراً فهّامة . وإذا أردت معرفة ألقـــابه الاخرى فعليك « بنجمة

الرائد » لليازجي صفحة ٢ الباب السادس من الجزء الثاني .

الادب فن التعبير عن العواطف والميول والتأثيرات نثراً ونظماً . فالشعر فرع من الادب . والشرط الجوهري للكاتب الادبي هو أن يكون ذا إحساس قوي يتأثر بجميع الحوادث ، فإذا نقص هذا الشرط تلاشى الكاتب الادبي .

وكيف يؤثر من لا يكون متأثراً : ألا انّ الذكاء يتعب ، والعلم يعذب، والحرية الفكرية تقلق النفس. ولئن عرفت كيف تضرب على أبواب القلوب سمعت الجواب دواماً . تجاوبك الدموع . دموع التعزية في الغالب ، ودموع الألم أبداً .

أما الصحافة ففي نشر الأخبار السياسية والإجتماعية والعلمية والأدبية. فهي اذن مختلفة عن الادب كل الاختلاف . إذا احتاج الاديب الى شعور قوي فلا حاجة للصحافي الى ذلك ، وما عليه سوى نقل الانباء التلغرافية ونشر الحوادث المحلية . فإذا فعل أجاد وكان عند ربه وعند الناس مرضياً .

على أن خدمات الصحافة جليلات ولا غنى لأمة متمدنة عنها . ولصحافتنا العربية مزية خاصة في هذا العصر بكونها لسان حال الأدباء والعلماء والمفكرين والمتشرعين . كتب العلم والادب قليلة عندنا لأن علماءنا وأدباءنا قليلون . وقد ندر بينهم من استطاع تأليف كتاب والإجادة التي هي شرط الإفادة . أما معظم الكتب المتداولة بين أيدينا فمنقول عن اللغات الأجنبية

وإذا كان لنا منها فائدة فهي ، على كل حال ، لم تكتب لنا ولم تلاحظ أحوالنا ووراثتنا وأخلاقنا في تأليفهـا . ولا يستطيع الإتيـان بذلك إلا كاتب منـّا . لأن الكاتب الأجنبي لا يفهم طبيعتنا الشرقية تماماً مهما عاش بيننا وهو ذو طبيعة متباينة ، فلا بد من المقابلة بينه وبيننا في كل أمر . وهو لا ينظر الينـا إلا بعين الغرب للشرق أي بعين الاستفهام الدائم ، بعين الاستغراب والاستحسان اللذين يتجاذبانه أمام كل حركة من حركاتنا .

ويجيد كتـّابنـا في بعض المقالات المنشورة في الصحف السيـارة . يجيدون في تشخيص الداء وفي الإرشاد إلى الدواء . فنرى أحيـاناً بين التلغرافات والحوادث المحلية سطوراً أدبية ملؤها الشعور الصادق والاختبار والمعرفة . وهذا فضل يضيفه الصحافيون إلى أفضالهم الكثيرة . فإن لم يكن الشعور ضرورياً للقيـام بواجبـاتهم ، فهم يعرفون كيف يستعملونه ومتى يظهرونه .

أصبح الصحافيون زمرةً قويةً تخشاها الأرض ومن عليها . فهم ينتقدون القوانين ، ويحـاجّون الحكومات ، ويسنون أوامرهم للبشر ، ويبسطون آراءهم لأولي الحل والعقد حتى اذا شعروا بأن الفكرة التي يبدونها بعيدة عن ذهن القارىء عمدوا إلى اسمـاء التحبب فدعوهُ تارة « القارىء اللبيب » وطوراً « القارىء الكريم » وحيناً « القارىء العزيز » إلى غير ذلك من النعوت الطيبة التي ترضي الجميع . فيقتنع القارىء بأنه لبيب

وكريم وعزيز ، فعلى كل لبيب كريم عزيز أن يفكر ان ما جاء في المقال هو الحقيقة بعينها .

أكتب هذا وأنا أعضُّ على سبابتي ضاحكة . لا تغضبوا يا سادتي الصحافيُّون . كلنا معترف بالخير المتدفق من أقلامكم على من يقرأ وعلى من لا يقرأ جميعاً؟ وأشهد باحترام أن وجودكم بيننا عنوان ارتقائنا ، أليس كذلك ؟ غير اني أريد أن أنصفكم فأقول : لئن كان كل منكم القدرة المجسمة ، فأن هناك شخصاً أقدر منكم لو اتحدتم جميعاً . لا تظنون أن الله هو من أعني ، بل هو بطل قلم الرقابة ... هو الرقيب . (١٩١٦)

موعظة شهر الورود

دنا المساء فهزّني طربُ الربيـــع ورغبتُ في الخروج والتجوال لأشارك الطبيعة في أفراحها . كأني حسبتُ جدران البيت تقطع الصلة بيني وبينهـــا ، وتشعرني بأني محرومة من مشاركة الموجودات الهاتفــات بأريج أيّار بين الغصون وبزينة الارض العروس .

خرجتُ وليس لي وجهة معينة أطلبُ بداهة" احيــاءً قلما اخترَقْتُها. فسرتُ في شارع قصير على مقربة من شارعنا كأن نفسي المتيقظة لبت داعي الاخضرين المحيطين بهاتيك المنازل : أخضر يبسطُ على أرض الحديقة طنفسة مخملية ، وأخضر يتعالى ظليلاً فيعكس طيف افنانهِ على وجه الجدران الشاهقات .

سرتُ متمهلة" انتقل من رصيف الى رصيفْ ، والشمس آخذة في التحدّر وقد انكسرت حدّتهـــا ، ولطف نورها ، حتى بدت الأشعةُ حزينة بما مازجها من معاني الفراق . وما

كان اندر المركبات والسيارات في ذلك المنعرج ، والمارّون يتبـــادلون نظرة كأنهم لقلـّتهم يقولون « أرأيت ؟ لا أحد إلاّ أنا » !

أتيت على آخر الشارع فنفذتُ إلى شارع رحبٍ طويل هو شارع ماريت باشا المؤدي إلى دار الآثار المصرية . فخطوتُ متردّدة بين العودة من حيث أتيتُ ومتابعة المسير إلى الامام . وإذا بناقوس يدقّ على مقربة مني ولرنينه ازاء الغروب دويّ متوسل حنـّان . فالتفتُ الى جهته فوجدتني أمـــام كنيسة صغيرة رأيتها مراراً ولم أدخلها مرة .

وقفت أتأمل واجهة الكنيسة وأدير النظر في الحديقة التي تتقدّمها وكانت تجتازها بعض السيدات . فلما توارين وراء باب الكنيسة تبادر إليّ انه يحتفل بصلاة الشهر المريمي في هذه الساعة من كل يوم على طول الشهر ، لأن أيّار (مايو) مكرّس للعذراء . ولم يعد ينقصني إلاّ أن أرى فتـــاة تسير بخطوات عصفور في ثوبٍ أزرق كزرقة الأحلام ، وتتوارى هي أيضـــاً وراء باب الكنيسه ، لأجد مني شوقاً إلى مشهد الهياكل وتوقاً الى رائحة البخور . اضحكوا مـــا شئتم ، انتم الزاعمون ان الثوب المليح دعاني ، وأن زيه البسيط تخريمه الدقيق كان له مع المرأة مني أحاديث .

أمـــا الكنيسة فكانت مملوءة بالمصلين ولم يخلُ في مقاعدها

إلاّ مكان واحد جثوتُ عندهُ قرب الكاهن الراكع أمام المذبح يتلو المسبحة باللاتينية فيردُّ عليهِ الجمهور بلهجة الخاشع المتهيّب .

لا أعرف شيئاً أجمل وأسمى من الصلاة في أي دين من الأديان ، لأنها ترفع النفس إلى أعلى درجات الارتقاء ومحاولة الدنو من روح الحياة الكبرى . هي مناجاة العابد للمعبود ، هي شكر المخلوق للخالق واستعطافه لاستنزال عطاياهُ . وما أعذب هذا الاعتقاد ان في السماء ، هناك وراءَ جمع القوى والعجائب الكونية ، إلهاً قديراً لا يُقضى دونه أمر ، لديه النعم يفيضها على الحاجة البشرية ، وعزة يتلاشى حيالها ضعف الإنسان ، وجودٌ يعمُّ البرايا فتموج وتتنوع وتنبض بالحياة والقوة والتحوّل .

إلا أني لا أستحسن الصلاة الآلية المستطردة على وتيرة واحدة دون أن يشترك فيها العقل والقلب ، — الصلاة المتعاقبة ألفاظها بين الشفاه والأصابع تعدُّ منها أرقاماً معينة — لأنها أبعث الى التنويم المغناطيسي منها الى الإيقاظ الروحي . قد يكون هذا التأثير من تفنن الشيطان في التجربة والخداع . قاتلهُ الله ! لقد وسوس في صدري حتى شتت أفكاري وحملني على احصاء الحاضرين . وكانت النتيجة اني جزمت بأن النساء أسبق إلى دخول السماء نسبة إلى عددهنَّ في الكنيسة ، إذ لم يكن بين مائتي امرأة إلا رجلان وخمسة أرباع . أما الرجلان فرجلان ، وأما الخمسة الأرباع فصِبيان صغار خمسة جاءوا مع امهاتهم .

وكم كنتُ ظالمـــة في الإحصاء والحكم ! ذلك اني عند الخروج وجدت جمهور الرجال في مدخل الكنيسة، يقفون هناك مراعاة للسيدات وتكرّماً منهم لهنّ بالمقاعد .

وظلّ الخنّاس الوسواس يجرّبني فحسّن لي تفحص المعبد فتفحصّت جدرانه وما قام عليها من صور وتماثيل ، وهندستهُ وما ميزها من نقوش ورموز ، وهياكلهُ وما تناسق عليهـــا من صلبان وطاقات أزهار – تلك الأزهار ذات الانحناء السريّ ، تتخللها شموع كأن لهيبهـــا تذكارات لاذعة في شفق الغيبوبة والنسيان .

لكلّ شيءٍ في العالم نهاية . صمتت الأصوات فمشى الكاهن إلى الدرابزون أمـــام المذبح الكبير وبدأ موعظته الإيطالية . وكان يقول أشيـــاء عادية بصوت المثبت ، وإشارته مرتبكة كإشارات التلاميذ في حفلة توزيع الجوائز . ولكن لم يلبث أن ارتفع صوتهُ وركزت هيئتهُ ، واتسعت اشارته ، ولمعت عيناهُ وهو يقول :

الى مريم ربة هـــذا الشهر الجميل يجب أن تلتجيءُ النساء جميعاً . فالأمهات يتعلمن منها التجمل بالصفات التي أحاطت بها ابنها يسوع : وهي الحنان والحصافة والمحبة الصادقة التى لا زهو فيها ولا تهورٌ . لقد كانت ، وما زالت ، وستبقى أبداً أسمى مثـــال للأمومة القدسية ، تسير الأمهات وراءها مستوحيات أساليب التربية والتهذيب .

اليها يلتجيء اليتامى الذين لا أمّ لهم فيجدون في حضنهـــا الراحة والعطف والمساعدة . اليها تلتجيءُ العذارى لأنها أبهى مظهر للطهر والحشمة والوداعة .

اسمعن يا اخواتي يا نساء القاهرة ! اليكنّ أوجه هــذه الكلمات فاقبلنها لأنهـا خلاصة اعتقادي . تعلـّمن الحشمة من مريم انتنّ بنات اليوم الناسيات . ما وقار المرأة واحترام الناس لها إلا نتيجة حشمتها وعفتها . قد تكنّ عفيفـات طاهرات في قلوبكنّ ولكن كيف يصـدقكنّ الرائي ويحسن الظن بكنّ وأنتنّ تسرن في الشوارع بهذه الأزياء الحديثة التي تعرّي منكنّ العنق والنحر والذراعين، هذه الأزياء الشريرة بأقمشتها الشفافة، الشريرة بقصرها وضيقها ، التي تعدم لابستها كل هيبة وجلال ؟

أ لِلْحُب ّ تتزينّ ؟ ألحبّ تتيهن في هذا التهتك ؟ ألا فاعلمن إذاً ان حب الرجل لا يُكتسب بالتهتك بل بالتكتم . الرجل محارب من طبعه ِ يهوى الفتوحات ويستميت في الإخضاع بينـا هو يعرض عن كل ما لا يكلفهُ ألماً وكدّاً .

ام انتنّ تتزيّنّ للجمال ؟ ولكن هل الجمال في الزينة والأناقة وملاحة الوجه وتناسب الأعضاء؟ كلاّ ! كم من امرأة تُحسب آية تناسب وملاحة وهي مع ذلك غير جميلة، إذا سرّ امروءٌ بمشاهدتها مرةً أو مرّاتٍ فهو لا يتمنى مجالستهـا ويملّ كلامها وسخافتها بعد أن يعرفها قليلاً ، إذ يرى ان أحسن ما فيها هو هذا الشيء

الخارجي الذيّ لا يكفي لامتلاك القلوب واكتساب الأرواح .

ألا فاعلمن أن النساء اللاتي كنّ ذوات أثر في أعاظم الرجال وذوات سلطة وشوكة حزنَ جمالاً أعظم من هـــذا الجمـال الخسيس وأبقى . لقد كان لهنّ جمال النفس الذي تزيده الأيام رونقاً بينا هي تحك القشرة هنا وهناك وتوسعهــا كل ساعة ذبولاً وإتلافاً . كان لهنّ جمال العقل وجمال القلب ، وجمال حسن التصرّف ، وجمال اللطف الصحيح ، وجمال المحبـــة الطاهرة العميقة المستخفة بالمظاهر التي لا يغرّها جمال الشباب وجمال الأناقة وجمال الازياء .

أتعلمن ما هو الشبـاب والجمال ؟ هما حـديقة تملأها الازهار النضرة والعطور المنعشة ، أمامها يقف المارّون معجبين . وما هو إلا يوم وليلة فتمرّ العاصفة صارعةً أشجـــارها ، مبدّدةً أزهارها ، مبيدةً عطورها ، وتغـــادرها خالية إلا من أكوام التراب والأغصان المكسرة . هذا ما تسمونه جمال الشباب أي جمال القشور . أمـــا الجمال الآخر فهو جمال الجوهر . الآلام تطهره والمصائب تجـلوه ، والعواطف تفعمه قوةً ونبلاً . هو الجمال الذي يبقى نامياً مدى الحيـاة . هو مسعد العـائلة ، وهو مساعد الزوج ، هو مهذب الأطفال ، هو السلام والخير والبركة . ولتحفظه المرأة ... اسمعن أيتها السيدات ... لتحفظ المرأة ذلك الجمال . عليها أن تكون وردةً تحيط بها الاشواك ...

انتهت الوعظة . فعزف الارغن الشجيّ وابتـــدأ الزياح

فاشترك الجميع في الترتيل وتصاعدت الشعـــائر نحو الله ملحنة أنغاماً ومحترقة أمام هيكله بخوراً .

وعند خروجي من الكنيسة كان الظلام يغمر المدينة ومضيئو المصابيح يجرون في الشارع حاملين المشاعل . فوقف أحدهم يتفرج على السيدات وهو يفترُ عن أسنـــانهِ البيضاء ، ويثني على كل مارّة الثناء المعتـــاد قائلاً بلهجتهِ المصرية النغشة « انتَ يا واد يا حلو ! انت يا للي زي البـــاشا ! انت يا واد يا حلاوة » .

هذه هي موعظة شهر الورود : على المرأة أن تكون وردة تحيط بها الأشواك . وما « أشواك » الوردة النسائية غير التكتم والحشمة والطهارة كما قال ذلك القس . فإن عجبتم اليوم لهـــذا الكمّ الطويل الذي يتعثر قلمي بأذياله فاعلموا أن سببه موعظة شهر الورود . وإن أعرضتُ عن ذلك الثوب الشفاف الساحر واستبدلته بهـذا الشبيه بثوب أبينـا الواعظ لكثافته فما سببهُ ألا موعظة شهر الورود . وإن غادرتكم الآن ، فما ذلك إلا لأني أريد أسمع موعظة شهر الورود مرة أخرى : — على المرأة أن تكون وردة تحيط بها الأشواك .

الحركة بركة

شكا الناس هذا العام وما فيه من كثرة الجلبة في ميادين القتال وقلة الحركة في ميادين الاعمال. قال بعضهم أن مصرفارغة في هذه الشهور فراغ جيب البخيل . وقال آخرون ان جيب البخيل لا تفرغ ان كانت يده لا تمتلىء ؛ فسعى بالصلح جماعة أرضوا الفريقين بقولهم « بل قد تكون جيب البخيل ويده ملآنين ولكن عينه تبقى فارغة » .

هؤلاء الناس سفسطائيون لا يعرفون شيئاً . أيها القارىء ، لا بد ان اسمّيك اليوم لبيباً ، إذ لديّ من الأقوال ما أودّ أن تقبله بلا اعتراض ، وأن تضحك له لا منه . لهذا لا بد أن تكون لبيباً . فإذا كان دولاب الأشغال (كما يقول الاختصاصيون) قد أكله الصدأ ، وما كثر في هذه الأيام من العمّال إلا العاطلون فلا تظن الحالة موجبة لليأس . صحيح أن البورصة تحزن السماسرة بعض الحزن لأنها عنيدة تأمل الطلوع ،

لكني أعترفُ لك سراً بأنها مصيبة . فليست الأيام أيام طلوع وكلّ مرتفع مُعرّض للقذوفات . انما الزمان زمان خنادق . حفرت البورصة لنفسها خندقاً ملائماً للأحوال ونزلت فيه صامتة .

غير اني أكرر أن الحالة لا توجب اليأس لأن اللصوص قوم أذكياء ، اذا هدأت الحركات غلت حركاتهم وتنوعت . يتهادون بين المنازل والدكاكين تهادي ربات الجمال وذوات الحجال . يسيرون من باب الى بابٍ ، ومن مستودعات الجواهر الى مستودعات الأموال ، بخفة وهدوءٍ لئلاّ يقلقوا راحة النائمين . الأدب حسن في كل حين ، واللصوص جماعة « جنتلمن » .

على اني أعجب للمسروقين لماذا يغضبهم انهم لا ينتبهون لمرور الساعة الرهيبة ؛ أهذا جزاء المعروف ، يا سادتي ؟ أما البوليس فلا اعتراض على وقفته : يقفُ في النهار بكرامةٍ ، وعلى مقربةٍ منه تتخاصم الناس وتتصادم المركبات ، وهو ولله الحمد واقفٌ بالسلامة ، منصوبٌ قوامه إلاّ من طرفيه كالألف المتقنة الصنع — وهذا يزيدهُ شبهاً بالهِ الحدود القديم عند الرومان .

استغفر الله ! لست أعني انه يظلّ واقفاً كالتمثال ! كلاّ ثم كلاّ ! انه يمشي أحياناً ، ويرفع يده مسلّماً على بعض المارين في المركبات ، وطرف حديث مع الاخوان لا يزعجه بل بالعكس . وهو مع ذلك متممٌ أمور وظيفته . فإذا رأى قبيل المساء حوذياً لم ينوّر شمعيّ مركبته صاح الهُ الحدود الجديد باسطاً

ذراعيه الى الأمام وقال « نوّر يا أسطى » ! . انهُ لبطل شجاع لا يحابي أحداً ، ولا يخشى هولاً إذا ما أمره الواجب ! علينا أن نعترف من جهة أخرى بأن الحوذي يطيع مرة في المئة ويعصى تسعاً وتسعين مرة، مكتفياً بأن يجيب على أمر البوليس « حاضر يا سيدي » ! . يقول المثل « لاقني ولا تعَشّني ».. وكذا يعمل الحوذي لأنّ ثقته في حلم البوليس لا حدّ لها . مهما كان المرءُ بوليساً فإنه يظل انساناً رحيماً .

هذه حالة البوليس في النهار ، أما عن الليل فلا تسلني! قيل لي في قديم الزمان وسالف العصر والأوان أن بوليس الليل يدعى خفيراً. وهو كذلك . إنه مازال بوليساً معتبراً ما دام قائماً مقام البوليس ولاأعرف عن هذا البطل الآخر سوى حادثة صغيرة جرت في شارعنا منذ أسبوعين تقريباً: دخل لص بيتاً فأفاق أهل البيت، وانتبه الجيران ، وقبض هؤلاء وأولئك على اللص وشريكه ، ثم تساءلوا أين البوليس أو القائم مقامه . فبعد أن بحثوا عن رجل الساعة وجدوه نائماً كطفل بريء ... فأيقظوه ! ويلٌ لقساة القلوب انهم لا يشفقون !

من ألذّ أخبار اليوم حوادث ثلاث : سرقتان لمبالغ ٥٠ جنيهاً و ١١٥ جنيهاً من بعض المخازن ، وسرقة حليّ وجواهر من منزل سيدة وطنية بقيمة خمسين ألفاً من الفرنكات .

بارك الله فيكم أيها اللصوص ! ان ضاعت أيامكم فإن لياليكم لا تضيع ! تذكرون قول الأمريكان «الوقت من ذهب» ، وقول

السويسريين « السكوت من ذهب » وتستخدمون الوقت
والسكوت معاً فينقلب الذهبان بين أيديكم لآلىء وجواهر !
بارك الله فيكم جميعاً ! أليس كذلك أيها القارىء اللبيب ؟

والبوليس ؟ لا توقظوه ! انه نائم بالسلامة كطفل بريء ...

(١٩١٦)

دنا عيد الميلاد ...

دنا عيد الميلاد وجاءت معه جميع الذكريات والتصورات والمعاني الخاصة به . غداً يلقي الواعظون من على المنابر كلمات الرفق والإحسان والغفران ، وينشد المنشدون « المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام » فيسمع الناس الأناشيد والمواعظ ولا يحاولون ادراك كنهها ، وإن أدركوا فلا يعتقدون بوجوب تطبيقها على أعمالهم؛ لأنها كجميع النصائح تقل قيمتها بالتكرار ويستخف بها كلما تبرع بها المتبرّعون .

المجد لله ليس في العلى الذي لا نعلم ما هو فحسب ، بل المجد له في كل مكان وكل زمان . أما السلام فليس على الارض في أيامنا ، ولا ينتظر أن يحل عليها قبل أن يتغير نظام الكون وهو التصارع والتقاتل الذي لا يفتر ولا يضعف .

منذ مئات الاعوام والدهور تتجاوب كلمات المحبة والمساواة أما الأعمال فلا يظهر فيها غير تنازع البقاء وتنازع القوة ،

وتنازع الغلبة والظفر بين الافراد والجماعات في شؤون العمران والدين والطبيعة . ليس غير التنازع من سبب في أن تقيم الفنادق الكبرى شجرة عيد الميلاد ليدور حولها الراقصون الراغبون في نسيان همومهم وتسريح غمومهم . وهو، هو باعث نظرات السرور في عيني طفلٍ يرقب لعيبات ودمى وخيل وأسلحة ومركبات عمرت بها نوافذ المحال التجارية . وهو منبّه الذكرى في نفوسنا ومعيدنا الى أيام كنا نرى في هذه اللعيبات الكون بأسره . كما انه في الوقت ذاته العاطفة التي تحوّلنا عن هذه الأشياء الى ما هو خير منها . أو ليس هو ذلك التنازع في شكل مجاملة ، صارت بالاستمرار اخلاصاً اجتماعيـــاً ، الذي يجعلني أقول : كل عام وأنتم ...

عام سعيد

كلمة يتبادلها الناس في هذه الأيام ولا يضنّون بها إلاّ على المتشح بأثواب الحداد . فإذا ما قابلوه جمدت البسمة على شفاههم وصافحوه صامتين كأنما هم يحاولون طلاء وجوههم بلونٍ معنويٍّ قاتم كلون أثوابه .

ما أكثرها عادات تقيّدنا في جميع الاحوال فتجعلنا من المهد الى اللحد عبيداً ! نتمرّدُ عليها ثم ننفّذ أحكامها مرغمين . ويصح لكلٍ أن يطرح على نفسه هذا السؤال « أتكون هذه الحياة « حياتي » حقيقة وأنا فيها خاضع لعادات واصطلاحات أسخر بها في خلوتي ، ويمجّها ذوقي، وينبذها منطقي ، ثم أعود فأتمشى على نصوصها أمام البشر » ؟

يبتلي امرؤٌ بفقد عزيز فيعين لهُ الاصطلاح من أثوابه اللون والقماش والتفصيل والطول والعرض والأزرار فلا يتبرنط ، ولا يتزيا ، ولا ينتعل، ولا يتحرك، ولا يبكي إلا بموجب مشيئة

بيئته المسجلة في لوائح الحداد الوهمية . كأنما هو قاصر عن إيجاد حداد خاص يظهر فيه – أو لا يظهر – حزنه الصادق المنبثق من أعماق فؤاده .

إذا خرج المحزون من بيته فلا زيارات ولا نُزَه ولا هو يلتقي بغير الحزانى أمثاله . عليه أن يتحاشى كل مكان لا تخيّم عليه رهبة الموت ؛ المعابد والمدافن كعبة غدواته وروحاته يتأمها وعلى وجهه علامات اليأس والمرارة .

وأما في داخل منزله فلا استقبالات رسمية ، ولا اجتماعات سرور ، ولا أحاديث إيناس . الازهار تختفي حوله وخضرة النبات تذبل على شرفته ، وآلات الطرب تفقد فجأة موهبة النطق الموسيقي ؛ حتى البيانو أو الارغن لا يجوز لمسه إلا للدرس الجدي أو لتوقيع ألحان مدرسية وكنسية – على شريطة أن يكون الموقّع وحده لا يحضر مجلسه هذا أحد . أما القرطاس فيمسي مخططاً طولاً وعرضاً بخطوط سوداء يجفل القلب لمرآها .

كانت هذه الاصطلاحات بالأمس على غير ما هي اليوم ، وقد لا يبقى منها شيء بعد مرور أعوام . ولكن الناس يتبعونها الآن صاغرين لأن العادة أقوى الاقوياء وأظلم المستبدين .

ان المحزون أحق الناس بالتعزية والسلوى ؛ لسمعه يجبُ أن

تهمس الموسيقى بأعذب الالحان ، وعليه أن يكثر من التنزه لا لينسى حزنه فالحزن مهذب لا مثيل لهُ في نفسٍ تحسنُ استرشادهُ ، وإنما ليذكر أن في الحياة أموراً أخرى غير الحزن والقنوط .

ألا رُبّ قائلٍ يقول ان المحزون من طبعه لا يميل إلى غير الالوان القاتمة والمظاهر الكئيبة . إذاً دعوهُ وشأنه ! دعوه يلبس ما يشاء ويفعل ما يختار ! دعوا النفس تحرّك جناحيها وتقول كلمتها ! فالنفس معرفة باللائق والمناسب تفوق بنود اللائحة الاتفاقية حصافةً وحكمةً .

بل أرى أن أخبار الافراح التي يطنطن بها الناس كالنواقيس ، ومظاهر الحداد التي ينشرونها كالاعلام ، انما هي بقايا همجية قديمة من نوع تلك العادة التي تقضي بحرق المرأة الهندية حيةً قرب جثة زوجها. وإني لعلى يقينٍ من أنه سيجيءُ يومٌ فيه يصير الناس أتم أدباً من أن يقلقوا الآفاق بطبول مواكب الاعراس والجنازات ، وأسلم ذوقاً من أن يحدثوا الارض وساكنيها انهُ جرى لأحدهم ما يجري لعباد الله أجمعين من ولادةٍ وزواجٍ ووفاة .

وتمهيداً لذلك اليوم الآتي أحييّ الآن كلّ متشّحٍ بالسواد ؛ أما السعداء فلهم من نعيمهم ما يغنيهم عن السلامات والتحيات.

أحيّ الذين يبكون بعيونهم ، وأولئك الذين يبكون بقلوبهم : أحيّ كلّ حزين ، وكل منفردٍ ، وكل بائسٍ ، وكل كئيب • أحيّ كلاً منهم متمنية له عاماً مقبلاً أقلّ حزناً وأوفر هناء من العام المنصرم •

نعم ، للحزين وحدهُ يجب أن يقال « عام سعيد » !

أجوبة الفتيات

نشرت احدى صحف اليوم تحت هذا العنوان النبذة التالية:
ألقت نشرة امتحانات التعليم الابتدائي الفرنساوية على الفتيات المتقدمات للحصول على الشهادة هذا السؤال « ما هي غايتكِ من الحياة » ؟ . وبعض الأجوبة جدير بالذكر . منها :

« أريد أن أكون من راهبـــات القديس فرنسيس لأمرّض المرضى طول حياتي » .

« لقد قرّ رأيي على أن أكون مركيزة » .

« أودّ أن أكون ملكة على فرنسا » .

« أشتهي أن أصير أمّاً » .

« أودّ أن أكون راعيةً للغنم » .

« أطمع في الحصول على ساعة » .

« أريد أن أكون بطلة مثل جان دارك » .

« أتمنى أن أسافر وأموت غرقاً » .

« أودّ أن أبرع في أساليب الهزوء والتنكيت الخ . الخ » .

●

فسألت نفسي بعد قراءة هذه النبذة « وما هي أمنيتكِ الآن » ؟ وأغمضت عينيّ منتظرة الجواب . وما أغمضتهما إلاّ وتلاشت الاصوات حولي ، ونسيت محيطي ، ورأيتني سابحة فوق الازرق الوسيع ، ورائحة المرارة البحرية وطعمها يخترقان كياني بينما الاهوية والنسائم يتناقلنني . يا لهذا البحر الجميل كم من أرضٍ محبوبةٍ يحول دونها ، وكم من وجهٍ عزيزٍ يحجب عن المشوق معناه ! ... ومــا لبثت أن وجدتني مستلقية على الشاطىء البعيد ...

أتعرفون تلك البقعة الهادئة المنبسطة على شفة البحر تحت ذياك المكان المدعو « بوطا نهر الكلب » ؟ أمــا زالت هناك كما كانت يخاصمها البحر ويصالحها ليل نهار ؟ هناك أودُّ أن أنام ، شأني وأنا في الثانية عشرة من سنواتي البشرية . هناك الرمال ذهبية نظيفة لا تفتأ الامواج تغسلها وتظلُّ الاشعة تنشفها . هناك صخور وشقوق أود أن أستريح في فيئها سعيدة بالاختلاء والكآبة ، سعيدة بغرز يدي في الرمل الناعم ، مُعْرِضة عن كل شيء ، ناسية كل شيء ، مكتفية بمناجاة الاصداف والحصى والذرات حولي وبإلقاء هذا السؤال على الكون الصامت « لماذا

أوجدتني ، أيها الكون ، وما تريد مني » ؟

●

أويقات سجلت في كتاب الحيـــاة ، أتمنى رجوعها لحظة ويأسف لانقضائها قلبي ، ولكن فكري ليس ليشتهيها لأننا في عالم نشوءٍ وارتقاء . ولئن اكتفى جزء من النفس مرة فهنـــاك جزء آخر يبقى متفلتـــاً من اظلال الماضي ، تائقاً إلى المستقبل المجهول ، لا يعرف لذة الارتواء وسعادة الاكتفاء ...

وصف غرفة في مكتبة

أستخرج هذه الصفحة من فصول لم تنشر بعد كتبتها تحت عنوان « مذكرات الجامعة المصرية » لسنة ١٩١٦ . والغرفة التي وصفتها تابعة لمكتبة الجامعة وهي اليوم مركز سكرتارية المكتبة . أما يوم كتبت فيها فكانت خالية يجتمع فيها الطالبات إذا جئن قبل ابتداء الدرس الذي يقصدن حضوره . ومنهن الفرنساوية والإنجليزية والروسية واليونانية والإيطالية والبلجيكية والسورية . ولم تخل تلك الاجتماعات إلا من الفتاة المصرية وهي الحقيقة بحضور الدروس أكثر من غيرها لأن الجامعة جامعتها أكثر منها جامعة الاجانب .

كنا نجتمع هناك كمؤتمر دولي التأم لعقد الهدنة وتقرير شروط الصلح ، أو كمؤتمر نسائي غرضه المطالبة بحقوقه والمجاهرة بمطالبه . ولكن الاحاديث الدائرة بيننا لم تكن لتدل على ذلك بل كانت مقتصرة على أخبار « الكونسرتات » والسيناتوغرافات

والازياء وأشكال البرانيط الحديثة . ويتخلل هـــذه الثرثرة النسائية المحضة ضحك « يدبُّ دبيبه » في كل موضوع تجاذبت أطرافه فتاتان ، فكيف به إذا صار ضجة فتيات كثيرات ؟

من عجائب الحديث النسائي أن السيدات إما يصغين جميعاً ولا تتكلم منهن واحدة ، وهذا نادر . وإما يتكلمن جميعاً في آن واحد ولا تصغي منهنَّ واحدة . وكانت الحال الثانية حالتنا في اجتماعاتنا نظلُّ عليها حتى يعرض لنـــا ذكر موضوع الدرس ، فيهدأ ضجيجنا بغتة ونصغي جميعاً إلى المتكلمة فينا ولا نحجم عن بثّ الآراء والمناقشة أحياناً . ونبقى « عاقلات » حتى يمر في الحديث خيـال نكتة صغيرة فنعودُ إلى الثرثرة والضحك المتقطع المتواصل .

اجتماعات لطيفة كاجتماعات الفتيـات في كل زمان ومكان ولكننا لم نكن لنهتم « بسرّ » الغرفة التي تجمعنـا جدرانهـا ؛ ولم أنتبه لذلك « السرّ » إلاّ يوم وجدتني هنـاك وحدي ناظرة إلى مـا نُشر على الجـــدران من رسوم أعاظم الكتّـاب والمفكرين .

●

يقال ان في العـالم نحو ثلثمائة جامعة . ولئن كانت الجـامعة المصرية أحدث هذه الجامعات سنـاً وأقلهنّ فائدة مادية (لأنه

ليس لألقابها حروف شتى يجررها الطلبة وراء أسمائهم) ، فهي مع ذلك آخذة مكانها بينهنّ . ولها ميزة خاصة بكونها جامعة أهلية :

على أنها ليست الجامعة الاولى في الشرق الادنى .

ان الازهر الشريف أقدم جامعات الشرق والغرب لأنه تأسس في القرن العاشر في حين أن أقدم جامعات أوربا – وهما جامعتا بولونيا وباريس – لم توجد قبل القرن الثاني عشر .

يجلل الازهر وقار القِدَم . غير ان بابه مقفلٌ في وجه غير المسلمين وتعاليمه دينية لغوية في الغالب . فهو في نظر كثيرين حلم عميق للمرء أن يذكره ويحدّث عنه ، ولكن لمسه ليس بالأمر الميسور .

اما الجامعة المصرية فمفتوحة للجميع ولا تقلل من فضلها حداثة سنها . إنّ كلّ صغير محبوب لأنه يطلبُ العطف . كل صغير مستودع آمال كبيرات لأن له قابلية النمو والتكاثر .

قال الفرد ده موسيه (وهو الشاعر الذي أعطى قوة التعبير عن أعمق العواطف بألطف الالفاظ) « كأسي صغيرة لكني أشرب من كأسي » . وعلى هذا القياس للمصريين أن يقولوا : « جامعتنا صغيرة لكننا نتعلم في جامعتنا » .

●

ليست الجامعة منهل علم لطلبتها فحسبُ ، بل هي مهبط وحيٍ لي حين أبلغها قبل ابتداء الدرس الذي أبتغي حضوره بدقائق أقضيها منتظرة متأملة .

فكم من فكر إنساني ما يحيط بي من آثار الحياة ! وكم من تأمل التقط موضوعه نظري بين وريقات شجرة خضراء تتمايلُ أمام النافذة ! وكم من حلم تحت خطوطهُ مرسومة في جوّ قاعة الدرس وألوانهُ متخللة خيوط الأشعة المطلة علينا ! أفكار وتأملات وأحلام رفرفت عليّ حيناً وغنّت في نفسي كالاطيار ، ثم فتحت جناحها الذهبي ساعة جاء الدرس ينبهني – فتحت جناحها وانطلقت تعدو إلى آفاق قصيّة أجهلها وأحبها لأن لي فيها أطياراً خيالية .

أنا الآن في غرفة صغيرة تابعة لمكتبة الجامعة ، وليس في هذه الغرفة من الكتب إلا ثلاثة أجهل اسمها ولغتها لأنها خفيت تحت كتاب رابع من تأليف مارمونتل . وهذا أديب فرنسوي لم يتفوق في موضوع من الموضوعات الكثيرة التي عالجها ، بل اكتفى بالإجادة فيها جميعاً إجادة معتدلة ، تاركاً البراعة والتفوق لأستاذيها الكبيرين : فولتر وروسو . روسو الذي حاول تكوين مجتمع جديد بقلمه القادر البليغ وملأ العالم ندباً ورثاء . وفولتر الذي كافح القيود الدهرية برأس قلمه الرشيق النافذ كالسهم إلى أعماق الافكار ، وبابتسامته الخالدة التي يرى فيها أتباعهُ فجرَ الحرية المنبثق من ليل العبودية الاليل .

ان للأمكنة أرواحاً، وفي هذه الغرفة الصغيرة روح تناجيني وسرٌ أطمع في اجتلاء غوامضه. كلّ ما يحيطُ بنا في الحياة سرٌ ولغزٌ لكنّ حواسنا المثقلة بأحمال المادة تحجبُ عنا الانوار ، فلا نرى للأشياء وجوداً ولا ندركُ لها حقيقة إلا بقدر ما تتفقُ معانيها مع أطماعنا وشواغلنا .

كلما رأيتني وحدي في هـذه الغرفة شعرتُ بأن في جوّها روحاً . أهي مجموع أرواح النوابـغ الحاضرين هنـا برسومهم وبخيالات الافـكار المطلة من أحداقهم ؟

نهضتُ أمشي في الغرفة ، أمشي وأفكر . وراء الطاولة التي أكتبُ عليها صورةُ سفينةٍ ركبت من البحر جواداً حروناً وسارت تقطعُ الامواج الكبار بقوةٍ وثبات . وتحت السفينة إطار حوى ورقة ممزقة وفيها بعض السطور الهيرغليفية .

الكتابة الهيرغليفية قرب الباخرة ! ان جوار هذين الرسمين لرمزيٌ : السفينة فينيقيا والخط الهيرغليفي مصر .

فينيقيا ومصر !

المدنيتـان القديمتـان اللتان بزغت منهما مدنيّاتنـا الحديثة وانحدرت من ذراريهما تواريخ ذرارينـا ! ترى هل وقفنـا على جميع ما فيهما من الاسرار وعرفنا كل ما كان عندهما من علمٍ وفن ومقدرة وسلطان ؟ أم نحن في ذلـك مدّعون دعوانا في سائر أقسام المعرفة ؟

قبل ان يكتشف كولمبس القارة الامريكية بقرون طويلات كانت سفن الفينيقيين تضربُ في البحر طولاً وعرضاً وقد عيَّن التاريخ خطوط رحلاتها ، ولكن أيُّ شيء أجهل من العلم إن لم يكن التاريخ؟ ومن يدرينا ما إذا كانت اليد التي شادت الاهرام وأقامت الهياكل المتراكمة اليوم بقاياها على رمال النيل ، هي غير اليد التي أوجدت هياكل ،تُرى الآن انقاضها في أواسط امريكا ، ونحتت ما عثر عليه لورد دوفرن من مسلات مصرية ونقوش شرقية في كولمبيا البريطانية ؟

والتليفون الذي اراه في زاوية الغرفة على مقربة من الكرة الارضية اهو اختراع هذا العصر فحسبُ ؟ ألم تكن من نوعه الآلة التي يقال انها كانت مستعملة عند كهنة إيزيس وأوزريس لمخاطبة كهنة الهياكل الاخرى من أقصى البلاد إلى أقصاها خلال الاحتفالات السنوية الكبرى والاجتماعات الدينية ؟ ولماذا لا يقوى العلم الحديث على استخراج الارجوان من الاصداف كما كان يفعل الفينيقيون ؟ لماذا لا يُخرج لنا ألواناً ثابتة لا تنفض نضارتها كألوان هياكل الاقصر ؟

أكان أجدادنا جاهلين ام نحن لهم ظالمون ؟ ام كل الفرق في ان العلم كان عندهم محصوراً ضمن الاقلية المنتخبة وقد أصبح في زماننا « حصة من جدَّ اعتزاماً » ؟

●

ولكن لنتابعن سيرنا في الغرفة :

في منتصف الجدار إلى اليمين صورة هوغو في شيخوخته ويده تحمل جبهته المثقلة بالافكار العظيمة . كأنما هو في جلوسه يناجي الاجيال قائلاً : ها أنا ذا ! أنا هوغو الذي انالته الحياة مجداً وثروة وحباً . أنا ذاك الذي شاخ في المنفى فكان سعيداً في الشقاء . انا ذاك الذي بحث عن نوابغ الماضي ودوّن اسماءهم تاركاً بعدها مكاناً واسعاً لإسم جديد . والإسم الذي أعني إنما هو اسم الرجل الجالس هنا حاملاً على يده جبهته المثقلة بالأفكار العظيمة : فيكتور هوغو !

وإلى شمال هوغو أرى الفيلسوف الرياضي ديكارت الذي قال فولتر في وصفه انه جعل العميان يبصرون ، إذ بيّن للقرن السابع عشر اغلاط القرون الخاليات وجعل شعار هذه الجملة : «لتبلغ الحقيقة يجب أن تنسى مرة في حياتك جميع الآراء والاعتقادات التي شببتَ عليها ، ثم تقيم أسساً جديدة لآراء واعتقادات شخصية » .

إلى شمال ديكارت ارى بوسويه اسقف « موو » . ترى بأي شيء يسرّ ديكارت إلى بوسويه في ساعات الوحدة ، وبماذا يجيب الاسقف الكاثوليكي ؟ ليت لي من سبيل إلى التجرد من جسدي

حيناً لأسمع محاوراتهما ولو مرة واحدة ، ولأعلم كيف يتناقش العلم والدين في عالم الأرواح .

على يمين هوغو موليير الشاعر الفذّ الذي ملأ رواياته ، وراء لهجة الاستخفاف والظرف والتنكيت ، انتقادات اجتماعية وعلمية ودينية ، وعلّم أهل زمانه الضحك من أنفسهم غير متذمرين .

وعلى يمين موليير وجهٌ نحيف جذاب . من هذا ؟ لو نسي مصوّرك كتابة اسمك تحت رسمك ، لو دُرِسَتْ آثار فكرك وعلمك وانتقادك وطمسَ الزمان كل ما أيده قلمك ، لو أكلتْ النار وجهك غير مبقية إلا على شفتيك لعرفتك يا فولتير ! يا لفمك من فم هائل في كلامه ، هائل في بسمته ، هائل في سكوته حتى في سكوت الصور !

تحت هوغو إطار ذو رسمين يمثل أحدهما راسين والآخر بوالو . ولو أنصفت الجامعة لوضعت راسين فوق هوغو وأقصت النظّام بوالو عن الشاعرين . لكني أفهم أن صورة هوغو عندها أكبر من صورة راسين . كذلك تسير مواكب الحياة ! فكثيراً ما يقطن الأكبر تحت الكبير ويقف الأحسن دون الحسن ، ولكلٍّ ان يرضى بما قسم له' لأن الزمان شاء ومشيئته لا تتغير !

من زاوية فولتير إلى الباب تمتدُّ مكتبة صغيرة خالية ممـــا وُجدت له، تتجلى فوقها صورة امرأة عظيمة: مدام ده سفينيه! كم تسرني رؤية هذه المرأة قرب هؤلاء الرجال! كأن وجودها هنا عنوان اهتمام الجامعة بالفتيان والفتيات على السواء، كأن صورتها على هذا الجدار صوت يستحث الفكر النسائي قائلاً: إلى الامام!

على الجدار المقابل لجدار فولتير صورة فنيلون « اسقف كمبري » مؤلف كتاب « تلماك » المفعم بالانتقاد الدقيق الخفي لحكومة لويس الرابع عشر وللملك المعظم نفسه. وإلى جانبه معاصره الشهير كورنيل واضع الروايات البديعات اللائي ما برحن ميداناً، فيه الحب والواجب يتنازعان.

وعند الباب هيكل عظام بشري إلا أنه صُنع من خشب الجوز أو من خشب آخر دُهن بهذا اللون. كل ما هنا يساعد ما في جوارهِ لجعل هذه الغرفة كبيرة في صغرها، عظيمة في سذاجتها.

صدق القائل ان للغرف ارواحاً...

احب روح هذه الغرفة الممزوجة من ارواحٍ شتى

وهل من مخبر بما رأتهُ هذه الجدران قبل ان تكون للجامعة من افراحٍ وأحزان، وبما شهدتهُ من تقلـّبات الحدثان!

لعلها سمعت تنهدات لم يلنْ لها قلبٌ، او رأت قلباً وحيداً لم يشاركهُ في ابتهاجه مشارك ؟

لعلها رأت دموعاً سخينة لم تمسحها اليد الرحيمة ؟

فولتير ! هوغو !

لو تكلّمت الجدران لكانت أتمَّ منكما بلاغةً وأعمق تأثيراً !

في محكمة الجنايات

زرتُ اليوم مكاناً لعلّه أرعب الأمكنة بعد مسارح الجرائم الخفية ومواضع تنفيذ الإعدام . أعني القاعة الكبرى في محكمة الجنايات حيث يُصدرُ العدل البشريُّ أشد احكامه على مَن يكون في عرفه مجرماً . ذهبتُ الى تلك القاعة حيث تنعقدُ المحكمة العسكرية لمحاكمة المتهمين بأنهم من أعضاء « جمعية الانتقام » المتآمرة على خلع السلطان ، وقتل الوزراء ، وقلب الحكومة ، والتحريض على الثورة في البلاد . ما أرهب هذه الكلمات التي تصوّر للمخيلة مشاهد الظلم والفتك والدماء والدمار ! ومن مميزات الحركة النسائية الجديدة ان المصريات امتزجن بالحياة العامة فصرن يظهرن في كل اجتماع قومي ، حتى وفي أحرج المواقف وأوجعها للقلوب الوطنية . كذلك حضرَ بعضهن جلسات المحكمة بالتتابع .

دخلتُ الدهاليز الواسع بين الجنود المنتصبين يمنةً ويسرة ،

وخلالهم يختلط المحامون بأصحاب القضايا ويناقشونهم بأصوات خافتة على رغمٍ منهم . فتلقّاني جنديٌ حاجبٌ قدّمتُ لهُ تذكرة الدخول فأوصلني إلى آخر . وسار بي هذا إلى ثالث وأنا أعدُّ الازرار الذهبية المنضدة على كتف كلٍ منهم ، وأتظاهر بعدم الاكتراث لأسكت دقات قلبي . وما كان حتى رأيت ضابطاً ينحني امامي وهو يفتح باباً لم اسمع لهُ ما يشبه الصوت. فوجدتني بغتةً في قاعة متوسطة الاتساع قد تبلغ مساحتها العشرين متراً طولاً على عشرة أمتار عرضاً . وبدلاً من ان اخطو وراء الجندي الذي سار ليدلّني على مكاني، ظللت واقفة وأنا في اجفالي اتفرّسُ في الوجوه المستوية في صدر القاعة وقد اشرأبّت نحوي جميعاً . غير ان الذي تكفّل بإيصالي عاد إليّ ثم مشى يهديني حتى أجلسني على المقعد الرابع ، وعلى مقربة مني « قفص » المتهمين .

أجميع الحضور يحدّقون فيّ أم أنا فيهلوعي أظنهم فاعلين؟ رفعتُ بصري اتبيّن الامر في سيماء القضاة اولاً فـإذا بهم يرقبونني وقد ادركوا في سرّهم مقدار جزعي واضطرابي. وهل من نظرٍ ينفذ إلى أعماق النفس ويعرّيها من استارها كنظر القاضي ؟ ربما كان هناك شخص واحد يفوقه براعة ،وهو الكاهن الكاثوليكي الذي يكسبهُ تعاطي الاعتراف واستماع شكايات الناس ، حنكة ودراية ومعرفة بأسرار النفوس لا يماثله فيها من العلمانيين غير من شفّت بصيرته بأنوار الإلهام .

لم اجرأ على النظر إلى المتهمين . وشعرتُ بأن اسلم النظرات عاقبة وأضمنها براءة هي نظرة اصعدُ بها الى سقف المكان مستوضحة هندسته وزخرفته .

زخرف محكمة الجنايات ؟ ما هذا المجون ؟

نعم ؛ هناك زخرفٌ وتنميق، وهو عبارة عن خطٍ عريض نُقش بالنقوش الحجرية البيضاء ودار حول سقف القاعة في أعالي جدرانها الكلسية الجرداء . وقطعت خطوطٌ اخرى من نوعهِ السقف ثلاثاً وأنالته شكلاً مرضياً . ثم هبطت عيناي إلى الحوائط ، وفي احدها القائم شمالاً شبابيك كبيرة واسعة رُفعت الأستار الكتانية إلى اوجها فتدفق خلالها نورُ النهار الداخل من الحديقة الفاصلة بين هذه القاعة وبين الشارع حيث يسير الناس احراراً غير مقيّدين . ولما فرغتُ من تفحّص الحائط والنوافذ والستائر ، واستنزفتُ عليها كلّ ما جال في دماغي من ملاحظة ومناقشة وتعليق – مشى بصري قليلاً قليلاً إلى صدر الغرفة حيث استوت هيئة القضاء لتحكم بقسطاس العدل .

أين ذهب اضطرابي حتى واجهتُ نظر القضاة بهدوء هذه المرة ، وبي شعور يشبه الراحة والطمأنينة ؟ فعدّلتُ جلوسي واستعدادي العقلي لأضع الأشياء في مواضعها .

هيئة المحكمة تتألف من قضاة عسكريين أربعة يلحق بهم

المترجم ، ويرئسهم قائد تبدو مرتبته في الأشرطة الحمراء المذهبة على كتفيه وكـمّيه ، وفي صفيّ الأشرطة الملونة الصغيرة الممتدّين على صدره واحداً فوق الآخر ليدلا على ما عنده من مختلف المداليات والاوسمة . ويتوسط الهيئة « نائب الاحكام » وهو قاض في المحاكم المختلطة وأحد كبار رجال القانون الإنجليزي ، وهو وحده بين القضاة يلبس الشعر العارية الابيض والرداء الاسود . وإلى اليمين كرسي المدعي العمومي ، أو مدّعي الملك ، كما يسمونه في هذه القضية ؛ وهو كنائب الاحكام يلبس الشعر الابيض والرداء الاسود. وأمام المحكمة مكان المحامين، فموقف الشهود، تتناسق متتابعة ووراءه مقاعد القاعة التي أجلس انا في صفها الرابع ، وإلى يميني قفص المتهمين الذي تنتهي حدوده من الجهة الاخرى قرب هيئة المحكمة .

ايّ المواقف اغرب من موقف المتهم إزاء القاضي ؟ وأي كرهٍ قسري بين هذين الاثنين بين شخصٍ ضعيف اعزل تحت رحمة الآخر ، وبين هذا الآخر الذي وُجد ليفسر الحركات والمعاني ويتصرف كيفما شاء في مصلحة المتهم وراحته وحياته . أيّ عداء وأي اختلاف أعظم من هذا ؟ مع ذلك فالاثنان خاضعان معاً لجميع نواميس الطبيعة وأهوائها . فلو تساقط الثلج الآن لا نتفضا معاً ، ولو زلزلت الارض زلزالها وفغرت فاها لالتهمتهما معاً . ولو انتشر مكروب خبيث لتناولهما معاً ولتألم كلٌّ على حدةٍ بمثل ما يتألم الآخر . بل ها هم جميعاً كلّت أدمغتهم

وأغمضوا عيونهم وفي كل منهم احتياج يظهر حق وفي تصلّب جلوسه ، احتياج إلى أن يتثاءب ويتمطّى كما يفعل الاسد ، أو كما تفعل هرّتي البيضاء عندما تأبى ملاعبة من لا يعجبها . وعند ما تخرج كلمة هزلية من فم المحامي أو القاضي أو الشاهد تلمع عيونهم جميعاً ويشتركون في الضحك . ولئن بعث القضاة إلى المتهمين بنظرة نافذة مستفسرة باردة كالسلاح الأبيض ، حيناً بعد حين ، فلواحظ هؤلاء تخال باسمة في الغالب .

نعم – في جميع عيون المتهمين ابتسام ، وهيئة القاعة عموماً بسيطة ليس فيها ما كنت أتوقعهُ من مظاهر الغم والعبوسة . كأنها مكتبٌ لأي عمل من الأعمال التجارية مثلاً . وبينا المدعي العمومي يتابع شكايته مستطرداً في الاتهـــام فيأتي بالحجة بعد الحجة ، وبالإثبات تلو الإثبات – إذا بالمتهمين لاهون عن أقواله بما بين أيديهم من جرائد ومجلات يقلبون صفحاتها ، ثم يتحادثون كأنهم يتبادلون الآراء في الموضوع الذي يقرأونه ولا علاقة له بالمحاكمة أصلاً . ثم يرتسم الحزن في سواد عيونهم وتبرز على جباههم أحكام نقشها لهم القدر في كتابه النحاسي ، فيتأملون قليلاً ويتنهدون . إلا أن اجتماعهم إجمالاً يُشبّه باجتماع مدرسيّ جدي . أقول « مدرسي » لأنهم من طلبة المدارس العليا . فهذا كان يدرس الطب ، وذاك القانون ، والآخر من طلبة الأزهر ، وغيره من مدرسة القضاء الشرعي ، وهيئة التلمذة عليهم جميعاً إلا عبد الرحمن بـــك فهمي الواقف في مدخل الممرّ إلى القفص

كالجبار ، وعليه ملامح الحكام والوزراء[1] .

حسن بزتهم يشير إلى درجتهم الاجتماعية ، وفي عيونهم ترقص أنوار الحياة ، وعلى شفاههم يبسم رونق النضارة ، وفي ذقون بعضهم تلك الطبعة الجاذبة التي يحسبها أهل الفراسة علامة الحب الشديد ورمزاً إلى أن في صاحبها احتياجاً للشعور بأن لهُ من يعزهُ ويحنو عليه . وإن حرمتهُ شقي شقاء لا يدركه غير أمثاله . فكيف يحتمل هؤلاء حياة السجن وراء الأبواب المقفلة وفي عناء الأشغال الشاقة ؟ وكيف يحتملون القيود والأغلال وكل ما هيأه المجتمع من نظام ولباس ويحوّل يأس الجاني إلى سخرية ظاهرة ؟ وأي التوسلات ستنطلق من هذه الأفئدة ، وأي الدموع ستلهب هذه المحاجر ؟

تلاشى فجأة ما يحيط بي ، واتسع القفص ، وأضيفت اليه جميع الأقفاص في جميع محاكم العالم وقد حشر فيها الألوف والملايين . ورأيت في عيون الجناة صور جناياتهم ، وفي عيون الأبرياء صور براءتهم ، وفي جميع العيون أشباح الخوف والفزع. ثم انهدمت جدران القاعة وارتدّت حدودها إلى ما وراء جميع

---

(١) عبد الرحمن بك فهمي سكرتير لجنة الوفد المركزية متهم بأنه كان يمدّ « جمعية الانتقام » بالمال والسلاح ، وهو من وجهاء البلاد وكان مديراً لمديرية بني سويف (المدير في مصر يوازي الوالي في سوريا قبل الانقلاب الأخير بل قد يفوقه أهمية) ثم عيّن وكيلاً لوزارة الأوقاف .

المحاكم في الماضي والحاضر والمستقبل . وصار القضاة الخمسة ألوفاً وملايين ، ونظراتهم النافذة المستفسرة الباردة كالسلاح الأبيض تتّجه نحو العيون المذعورة . وسمعتُ الأحكام على العبيد وعلى الملوك ، على المظلومين وعلى الظالمين ، وتراءت لي السجون بغمومها والأشغال الشاقة بذلّها ، وآلات التعذيب بهولها ؛ وبدت أمـــامي وجوه الجرائم والفظائع والشرور فتقطّعت أوصال إحساسي . وفي هذه الغرفة التي كانت تبسمُ منـــذ هنيهة سمعتُ صلصلة السلاسل وقعقعة القيود ، ولمحتُ أحكام الإعدام على لابسي البذلات القرمزية السائرين نحو المشانق عراة الأقدام ...

ما هذه الضوضاء التي تخرج بي من هذا الكابوس الفكري ؟ أكلّ هذه جلبة الحبـــال في الأعناق ؟ كلاّ ، بل حانت ساعة الانصراف ، ورفعت الجلسة ، وانفرط عقد المجتمعين وها هم يخرجون إلى الدهليز الوسيع المؤدي إلى الشارع . وهناك عند العمود الضخم المنتصب أمام المحكمة رفع أحد المتهمين نظره إلى إفريز العمود الأعلى ثم أداره سريعاً إلى الأرض وأرسل زفرةً محرقة . فنظرتُ إلى الافريز الأعلى وإذا بطائرين قد وقفا جنباً إلى جنبٍ ينشدان أنشودة الحياة والحب والحرية .

« سعادة » ملك اليونان

نقلت برقيـــات اليوم خبر عودة الملك قسطنطين والأسرة المالكة إلى بلاد اليونان ، فقالت انه قوبل بحماسةٍ شديدة وروت عنهُ هذه الكلمة « اني سعيد بالعودة إلى وطني » .

طبيعي ٌ أن يسرّ المرءُ بالعودة إلى بلادٍ أقصي عنها وهو يحبها ؛ طبيعي ٌ أن يرتاح لاستنشاق هوائها لا سيما ولهُ فيها عرش كسائر العروش انتصبت قوائمه على قوة الاستمرار والتسليم بلا مناقشة . ليس تلاميذ المدرسة اليونانية الذين أسمعهم يهتفون لقسطنطين عند الانصراف هم وحدهم أطفالاً يؤيدون من يجهلون وينادون بمـا لا يفقهون . الجمهور طفل بوجهٍ عام . موجة ترفعه وموجة تدفعه . انفعال يطير به إلى قمم الجبال وانفعـــال يهوي به إلى أعماق الهـــاوية . يولـّهُ الساعة من سيذلّ بعد ستين دقيقة وسيمجّد غداً ما قدّسهُ أعواماً ودهوراً . وهو في كلّ ذلك هائج مائج ، مسيّر غير مخيّر يتدافع بلا تروٍّ أو تعقل .

ومن الغرائب أن الأشياء تقوى بالتضاعف إلا ذكاء الجمهور . فلو اختير خمسة أشخاص أو عشرون شخصاً من أرقى الناس وجُمعوا للمناقشة والبتّ في أحد الموضوعات ، وأفرد لمثل ذلك شخص واحد متوقد الجنان ماضي العزيمة فلربما جاء الفردُ بما قصرت دونه الجماعة . لأن مستوى الذكاء يهبط في الجمهور ويختلط بينما هو في الفرد يسمو ويتناهى . وهو حدث سيكولوجيّ معروف لدى علماء النفس . ولعلّ المقابلة بين قاموس الأكادمية الفرنساوية الذي يشتغل فيه عشرات « الخالدين » منذ عشرات الأعوام ، وبين قاموس لاروس الكبير الذي أنهاه فردٌ واحد دون مساعدة أحد — لعلّ هذه المقابلة مصداق يقبله كثيرون .

على أن كلمة الملك تستوقف الذهن وتنبه الهواجس عند ذويها . يقول إنه « سعيد بالعودة » . ولكنّ سبب هذه العودة راجع إلى موت ولده ، إذ لو بقي الملك اسكندر على قيد الحياة ما تقيّض لأبيه أن يغادر سويسرا في هذه الآونة . وإذا كان « سعيداً » بالنتيجة فكيف لا يكون سعيداً بما أدّى اليها ، أي بوفاة ولده ؟

والذي ساقته الهواجس إلى هذه النقطة لا يحجم عن أن يخطو خطوةً أثيمة أخرى ، فيقول : إذا سعد الملك بتلك الوفاة بعد وقوعها ، فأي مانعٍ منعهُ عن أن يسعد قبلئذٍ بتخيُّل احتمال وقوعها ؟ ترى ألم يمرّ في مخيلته خيال الموت وولدهُ على فراش

المرض ؟ ومن يدري ؟ ألم يتحرك في قرارة نفسهِ شيء يشبه الخوف أو ... التمني ؟

لا،لا أريد استطراد التحليل ! وسواء أكان هذا الوهم ممكناً أو مستحيلاً في قلب والدٍ أو والدة ، فإن النفس البشرية تبقى دواماً هي هي في ارتباك انفعالاتها واشتباك نزعاتها. ولئن كانت العواطف الأبوية قوية في الغالب فلكم ضُحّي من ولدٍ لغاية شخصية ، أو لأجل قريب ، بل لأجل غريب إذا أحسن ذلك الغريب لمس الموضع الحساس من حبّ الذات ، أو علل طمعاً من أطماع النفس أو منّاها بإحدى رغائبها ...

لمحة مرعبة في قلب الإنسان . فلنحولنّ النظر إلى مـا هو أقلّ أدلهاماً !

ماك سويني

على ذكر الملك اسكندر أقول أني ككثيرين غيري ، كنتُ أرقبُ الأخبار عنهُ صباح مساءَ كل مدة مرضه . لم أكن لأهتم بشخصه من حيث هو ملك اليونان « الموافق » الآن لسياسة الدول . لقــــد أتعستني الطبيعة – أو أسعدتني – بأن جعلت لفافة السياسة في دماغي جافة عقيمة لا تتأثر ولا تتحرّك . إلا أنه كان مذكوراً بالخير لسحقه تقـــاليد راسخة وتحطيمه سلاسل وثيقة بزواجه من فتاةٍ من ذوات الدم الأحمر الحيوي الفوّار ، بدلاً من الدم الازرق «الشريف» الذي ليس بشريف ولا هو بأزرق في غير دعوى مدّعيه .

كذلك كنت أهتم لأخبار ماك سويني إذ كاد يدخل العليلان دور النزع معـــاً ، وقد توفي أحدهما بعد الآخر بساعات معدودات. وكلٌ منهما بطلٌ في بابه ، ضحية في بابه : فهمـــا مختلفان متشابهان .

ملك اليونان يقضي بعضّة حيوان غاضب ، يقضي مرغماً

تمرّضه امرأةٌ عزيزة . والآخر يقضي ببطءٍ مختـــاراً لا يداويه عزيز ، ولا هو يسير بنشوة الحماسة وجنونهـــا نحو الموت بل ينتظرهُ انتظاراً رياضياً ، منظماً ، متتابعاً ، متماسكاً عنيداً . يموت لينفّذ كلمة قالها عند دخول السجن : « سأخرج من هنا بعد شهر حيـــاً أو ميتاً » . ولم يثنِ عزمه ذكر زوجةٍ وأبناء ينتظرون نعيه في البيت الخالي منه حيث لن يعود قط .

أي رجل كان ذلك الرجل ؟ حمل ثقيل أزيح عن عاتقي عندما علمت بانتهاء آلامه .

لقد طالعت كثيراً مما كتُب عنه في الصحف الإنجليزية وغير الإنجليزية ، وقرأت يوميات دوّنها في سجنه – وقد تكون مختلقة أو محرّفة . وحضرت قداساً أقيم في كنيسة القديس يوسف لراحة نفسه . وظهرت هنـــا بعض الصحف الوطنية مصدرة برسمه ، وقد جرت في أعمدتها أنهـــار النظم تنويهاً بشجاعته وبطولته . أما أنا فلم أفهم بعد أية خدمة أدى إلى وطنه ، وأي درس ستتلقى إرلندا من موته سوى درس المثابرة والثبات ؟

أليس من الخسارة الفادحة أن يلاقي رجل كهذا حتفه مختاراً ، ليعطي وطنه أمثولة كان في وسعه أن يعطيه عشرات لا تنقصها أهمية وإن اختلفت عنها نوعاً في حياته ، حتى إذا حانت ساعة الموت رحل عن الدنيـــا بميتة هي أنبل من الميتة الغبراء وأسمى ؟

زواج الملوك

« أثينا في ١٠ مارس سنة ١٩٢١ — احتفل في الكاتدرائية بزواج وليّ عهد رومانيا بالبرنسيس هيلانه اليونانية — روتر » .

زار وليّ عهد رومانيا مصراً في الشتاء السابق قاصداً إلى اليابان، على ما أظن؛ وقد دُعيت رحلته يومئذٍ « حمية النسيان » فصارت اليوم « رحلة الشفاء » . أرسلوه يجوب الأقطار ليسلو زوجته وولده وليُقدم على إهمالها وإنكارهما . لأنه هو الآخر فعل فعل الملك اسكندر واقترن بابنة ضابط بسيط . غير أن اسكندر اليوناني تزوج بعد ارتقائه العرش يوم لم تكن في الدولة فوق إرادته إرادة . أما كارول الروماني فحاول التملّص من وثقٍ تجعله إنساناً مركباً ، مقيـــداً ، رهين أهواء المناورات الدولية . فتنـــازل عن العرش الموعود ، ورفض تاجاً يهيئه له

المستقبل ، ورضي بأن يبقى رجلاً بسيطاً حراً سعيداً بزوجته وولده ، وأن يتمتع بالحقوق العامة كأحد رعايا رومانيا دون أن يطمح إلى ميزةٍ أخرى .

كان ذلك ؛ فأرسلوهُ يُسرِّح عواطفه بين مـاء القارة ويابستها . وعندما عاد بعد ستة أشهر إلى عاصمة رومانيا كان خطيب هيلانة اليونانية . وإذ وقف يشكر الذين شربوا نخبه في الوليمة الرسمية التي أقيمت احتفاءً بعودته ، رفع الكأس بيدٍ ثابتة وقال بصوتٍ جليٍّ أدهش الحاضرين : « علمتُ في رحلتي هذهِ أن المرءَ يخصّ وطنهُ قبل كل شيء » .

ولما كنت أقرأ وصف المهرجانات المعدة في أثينا احتفالاً بمجيء الملك قسطنطين والعائلة المالكة كنت أفكر على رغمٍ مني في امرأة تمزق قلبها أصوات الفرح . هي وحدها تلبس السواد في وسط الزينة والأبهة ، وتبكي تحت نقاب الأرامل بينا الملكة تركز على جبهتهـا تاجاً كادت تفقدهُ وترصّع صدرها بجواهر العرش . تلك المرأة وحدها تذكر في وسط النسيان الشامل ، وشيء كثير ان يكون للمرء قلب واحد لا ينسى .

وهناك امرأة تشبهها في بخارست ، غير أن زوجها حيٌّ سعيد وقد تملكتهُ من جديد أطماع الملوك وأطماع انصـاف الملوك ، وتهلّل شعبهُ بهداه — أو على الأقل زعم انه تهلل . الجريمة التي يعاقب عليها القانون بصرامة في طبقات المجتمع على اختلافها يُرغم على ارتكابها من يُعدّ بعد الملك منبع الشرف

في الدولة ، ويحسبون امتثاله وذله عقلاً وحصـــافة ؛ فيسارع ملك آخر إلى تسليمه يد ابنته وحياتها . ومَن توفرت له هذه المزايا فلا بد أن يكون في الغد ملكاً عظيماً ...

أرملة اسكندر في أثينا ، وأرملة كارول في بخارست : ترى أيّ المرأتين أشقى ؟

الشباب والموت

لم يهمل سادتنا العلماء موضوعاً هو في نظر بعضهم الموضوع الأمثل .

نحن نسمي هذه الدنيا « وادي الدموع » ثم نشفق على الذين يغادرونها ، وأقصى مـــا نتمنى هو أن نعمر طويلاً متمتعين بخصائص القوة والصحة والشباب .

لقد استولت تلك الأمنية على قلوب النـــاس فجعلتهم آناً كاذبين محتالين ، وآونة خونة مارقين . كم أفسدت من عملٍ نبيلٍ ، وكم قادت إلى فظيع الجنايات .

كلٌّ منا يريد التفلّت من شِباك الردى ليطيل الجلوس في مأدبة العمر مراقباً مناظر الطبيعة ، متسقّطاً أخبار العـــالم ، نائلاً حظهُ من التنعم والتلذّذ ، ومن التوجع أيضاً . ولـكم متن قيدُ الألم حتى تجاوزهُ الفَلّ ، بينـــا قيود الحبور مقطّعة

الأوصال ، لا تفتأ تصهر مادتها لتستحيل ألماً ذا طعمٍ جديد.

كذلك أخذوا يبحثون عن « عين الحيـــاة » التي أوجدها زفس[1] فوصفهـا أحد علمـاء الجغرافيا وصفاً ... جغرافياً ، وارتأى كاتب روائي انهـا تأتي من النيل ومن أنهـار الفردوس الأرضي ، وأن قطرة منها تعيد إلى العليل صحته وإلى الشيخ شبابه . ومضى يطلبها رحّالة اسباني فاكتشف مقاطعة فلوريدا وهي من الولايات الأمريكية المتحـــدة . وانحنى الكاباليون على الصهور الكيماوي يبحثون عن مادة الشبـــاب فتبـارى بايكون ، وسن جرمان ، وكاليوسترو في تركيب « اكسير الحيـــاة » ، وتعدّدت الكتب الدالة على وسائل إطالة العمر وحفظ الشبـاب . ومتصفّح جريدة « السائح » النيويركية ومجلة « الأخلاق » يرى هناك إعلاناً عن « كتاب الاكتشاف الثمين لإطالة العمر مئـــات من السنين » بقـلم الدكتور لويس صابونجي السوري الذي كان سكرتيراً ثانياً للسلطان عبد الحميد وأستاذ التاريخ لنجله البرنس برهان الدين .

وها أخذت تهتم الدوائر العلمية بمباحث الدكتور فرونوف ، وتجـاربه الدائرة حول استبدال الغـدد المتداخلة بين الأنسجة

---

(١) في خرافات الأقدمين ان جوبتر إله الآلهة حول حورية من بنات الماء إلى ينبوع يعيد الشباب والصحة إلى كل من استحم بمائه .

بغددٍ جديدة تُستخرج من الحيوانات . ويقال أن النجاح باهر يحوّل الشيخ شاباً بلا وجعٍ ولا ألم بل بحقنة بسيطة تحت الجلد .

إلى هنا وصلنا من طمعنا الأكبر . وحسن أن يستعيد المرءُ شبابه وأن يحفظه طويلاً ، ولكني لا أرغب في إبعاد الموت عن البشر .

لقد وصف الكاتب الإنجليزي «سويفت» في كتابه «رحلات جلفر» حال قبيلة استرالدبرج المحتّم عليها أن تعيش دواماً . فقال أن أعضاءها يصرفون المئة سنة الأولى وشأنهم شأننا نحن النوع الآدمي ، حتى إذا تجاوزوها أصيبوا بكآبة يائسة وساورتهم الهموم والغموم . ينادون الموت فلا يلبي نداءهم ، ويجدفون على الحياة كلما شهدوا موكب جنازة ، ويمقتون الطبيعة التي حرمتهم لذة الموت وهناء الاستسلام إلى الراحة الدائمة .

وأي نصيب أمرّ من هذا ؟

ألا إنما قيمة الحياة في رهبة الموت الذي هو جزءٌ منها . وإذا أدرنا البصر في أحوال الناس ورأينا تلك الوجوه السقيمة ، والأجسام المشوهة ، والأعضاء البتراء ، ورأينا ذوي العاهات

الأخلاقية الذين يُنزلون في المجتمع المصائب والأوصاب ويظلون عالة عليه ِ طول حياتهم ، إذا رأينا ذلك أدركنا ضرورة الموت وعرفنا فيه ِ محسناً كريماً .

ثم ، أي اسم غير اسمه ِ يخفف من حزن الحزين ، وأي خيال غير خياله يلطف من يأس الآيس ؟

عائدة تتذكر ...

أيهذا المارّ أمام معاهد التعليم ، ما أجهلك بما وراء الجدران من متزاحم العواطف ومتضارب الانفعالات! هناك هيئة اجتماعية صغيرة . والعمر الذي تحسبهُ أليف الصفاء والغفلة والهناء إنما هو كالشباب والكهولة والشيخوخة أسير حمّى الحياة . هنـاك جميع صنوف الناس : المتيمّن والمتطيّر ، المفكـّر والأحمق ، الشجاع والجبـــان ، الرصين والطائش ، الشخصية الممتازة والشخصية العادية ، النفس الأبية الشماء والنفس الدعيّة المتبذّلة. وما الطفولة إلاّ مقدمة قد يكفي أن تطالعها أحياناً لتلمّ إلماماً سريعاً بما ضمنهُ الكتاب من تفصيل وإسهاب .

كانت عائدة ذات طبيعةغنية خصبة. تحبُّ الجري واللعب والضحك ، أي بنية لا تحب ذلك ، ؟ وتبتكر للهو أساليب طريفه ترفعها في تقدير رفيقاتها . ولكنها كانت وحيدة الروح. وكثيراً ما تنزح عن ميدان اللعب إلى الحجر المنفرد في أطراف

الساحة ، فتجلس هنـــاك ناظرة الى البحر البعيد ، الى زرقته الفيحاء واستدارة الأفق الخيم عليها ، متمتّعة بجمال الطبيعة ومتهيبة إزاء روعتها جميعاً. فترى السفن، وقد تضاءلت بشاسع المسافة ، مارة في تلك الزُرقة القصية بكياسة ورشاقة ، تترك وراءها خطاً أبيض طويلاً لا تعرُّجَ فيه . عندئذٍ تُمعن عائدة في تفحص ذلك الخط المستقيم ، كأنما هي تقابلُ بينهُ وبين خطٍّ آخر رسمهُ في داخلها مرور سفينة من سفن أحلامهـــا شقّت أمواه نفسها العميقة .

كانت تحسنُ ركوب الخيل على حداثة سنها ، وقد قطعت على ظهر الجواد سهولاً وجبالاً نبضت حياةُ التاريخ تحت الأرض منها ، وبين الاشجار ، وعلى الصخور وحول القمم . ما شهدت جلال الطبيعة إلاّ عادت اليها تلك الذكريات مع صدى الاغاني الوجدانية التي ينشدها أهل المضارب في الظلام فتثير بين ستائر الخيام أنة جزع وغرام . أمـــام البحر ها هي شجية تتذكر ، فتنشد من الالحان البدوية ما تهتز لهُ أوتار قلبها .

●

تكوّنت بينها وبين احدى الراهبات ، على مرور الايام ، صداقة حارة تنشأ أحيـاناً بين النساء الجـــامعات بين غزارة العواطف وحدّة الذكاء – ولعل تلك الراهبة كانت وحيدة بين الراهبات وحدة عائدة بين التلميذات .

لم تكن الأخت أوجني من معلمات عائدة ، فهذه من بنات « الداخلية » والأخت أوجني تتولّى تدريس أصغر الصفوف في « الخارجية » ، وليس بين المدرستين غير الصلة الحجرية لأنهما في طرفين متباعدين من بناء الدير الواحد . فكانت الفتاة تقول لنفسها « لو كانت هي معلمتي لتفوّقتُ في صفّي ارضاء لها ، بدلاً من أن أرغَم الآن على العمل تحت مراقبة راهبة لا أحبها وإن قالت لنا الرئيسة انها حفيدة مارشال فرنسوي . ما أقل اهتمامي بكَ وبحفيدتك أيها المارشال العظيم ! وكم يسؤني أن أطيع حفيدتك ، أيها المارشال العظيم ! وكم أكره الواجب لأن حفيدتك تدعو اليه ، أيها المارشال العظيم ! ما أجهل الناس بأساليب الإخضاع والتعليم ! اذا كان وجه الطاعة والواجب عابساً، كما يقولون، ألا فلتأتِ الدعوة اليهما من أصوات نعزُ منها الوجوه في حالتيّ البشاشة والقطوب ... » .

لم تكن عائدة في سنّ أو في درجة عقلية تستطيع معهـا الإفصاح عن رغبتها بمثل هذا الكلام . وإنما ذلك ما كان يخالج ضميرها . والتعبير عن الشعور ان لم يبرز بياناً منسقاً واضحاً فقد برز زفيراً حاراً . لذلـك كانت الصغيرة تصغي إلى صوت فؤادها وتتنهّد .

قلّ ما اجتمعت الصديقتان في غير الكنيسة حيث تحتشد عشرات الراهبات ومئات التلميذات من داخليات « پانسيونر »، وبنات الميتم ، وبنات المشغل ، وبنات التفصيل . فتدخل كل

جماعة في الوقت المعين وتجلس في مكانها تحت رقابة المعلمات . وعند انتهـــاء الصلاة تنصرف كل جماعة في دورها فلا يختلط الفتيات، ولا يتحاذين، وأن تلاقين صدفة فلا يتخاطبن. يعِشْنَ غريبات في دير واحد لأن هيئتهنّ ... الهيئة الاجتماعية بما بين أعضائها من فروق المراتب .

وقد تلتقي الصديقتان صدفة في الحديقة أو في أحد الممرّات فتتبادلان الاخبار بسرعة بينما العيون تتحدّث بلغتها المختلفة . غير ان عائدة لم تكن لتقنع بهذه اللحظات النادرة . فتتحيّن الفرص لتذهب خلال نزهة الظهر ، ولو دقائق ، إلى الجنـــاح الآخر من الدير وتدخل على الأخت أوجني وهي تطرّز وحدها في المدرسة منتظرة وصول تلاميذها وتلميذاتها .

ما أخطر هذه المجازفة وأعظم هذه الجرأة ! ولكن الفتاة كانت تُكافأ إذ ترى أمارات السرور على وجه الراهبة وتسمعها قائلة « انظري إليّ ، يا عائدة ! » ثم تقول « يجب أن تتعلمي الخضوع للقانون وألاّ تعودي الى مثل هـــذه « الفلتات » . والآن استودعك الله ، اذهبي يا ابنتي ، اذهبي يا صغيرتي ولا تنسيني » !

يا ابنتي ، يا صغيرتي ، بمثل هـــذا تنادي الراهبات جميع

التلميذات . ولكنهُ من فم الاخت أوجني نشيد سماوي يظلّ صداهُ متردداً في جنان عائدة .

●

جدّدت هذه « الفلتة » اللذيذة يوماً ووقفت عنــد عتبة الراهبة وهي تلهثُ تعباً واضطراباً . ربّاه ! ماذا ترى في هذه الغرفة وماذا تسمع ! بين ذراعيْ صديقتها فتاة تقريباً من عمرها هي عائدة . الفتاة تبكي والراهبة تؤاسيها بصوتٍ شفيق قائلة : « لا تبكي يا ابنتي ، لا تبكي يا صغيرتي ! » .

لم تلمح هذا المشهد حتى انقلبت راجعةً من حيثُ أتت . سمعت الفتيات في الخارج يتحسّرن على هند « لان أمها ماتت ». ففهمت وقالت « مسكينة هند » . ولكن شفقتها كانت سطحية لاستيائها من هند المجهولة هذه التي أخذت مكانها ؛ والنداء الذي يجب ان تنادى به وحدها ، الأخت أوجني هي ! هي اتستعمله لتعزية الفتاة الغريبة ...

آه من خيانة البشر ! آه ما أضيق الحياة ! ما اثقل جدران هذا الدير وأرهب ظلّها المنعكس على ساحة اللعب مختلطاً بظلّ الأشجار الكبيرة ! وتبّاً لهذه الأشجار فقــد مشت الأخت أوجني ، الخائنة ! ، تحتها ! وتلك الفروض التي يجب ان

تُكتب ! وتلك الدروس التي يجب ان تُستظهر ! ما أطيب الموت ! أين أنت أيها الموت ؟

مسكينة عائدة ! كانت قوية الشعور فطرةً وقد ساعدت تربيتها الاولية على تقوية عواطفها وإرهافها ، ولم يكن لديها العقل اللاجم ولا الخبرة الحكيمة . وكم من امرأة تقضي عمرها على هذه الحال فتشقى وتُشقي وهي لا تدري انها مريضة في أعصابها ، وان نسبت ذلك الى الرِّقة . نعم ، الحياة تافهة ان لم يبهجها نور الحب ويعظّمها سناء الفكر ، ولكنّ بين هاتين القوتين الجليلتين وسخافة الغيرة بوناً شاسعاً .

وصارت عائدة توجّه الى الراهبة كلّ كلمة حواها كتاب الصلاة في هجو الشيطان واحتقارهِ . وتلخّصت معاملتها لها في اظهار الاستياء والاستنكاف الى درجة المبالغة . وكلما أبدت الصديقة الكبيرة ألماً زادت الصغيرة الشريرة تعذيباً .

●

تكاد حيوية الشر تتغلب على حيوية الخير . ولكن القلب الوفي لا يفتأ يلتمس من المحبة غذاءً ودواءً . لذلك أفرغ قلب عائدة الكره في أسابيع وأخذت تتسرّب اليه الكآبة .

أخذت تكتئب لا سيا وقد دنا عيد الميلاد وأسرعت أيام

العام الأخيرة نحو هوّة العدم . يخيل ان هذه المواسم أعلام العمر أو محطات على خطّ الرحلة منه . فتحتاج القلوب الى مضاعفة المحبة والصداقة والعطف والتبحر ، بينـــا قلوب أخرى تلهو بالرقص واللعب والانشاد وما شاكلها من أمور خارجية .

وكانت تكتئب لأن رفيقاتها الصغيرات أخذن يغادرن الدير ليصرفن الأسبوع بـــين أهلهن المقيمين في المدينة أو في ضواحيها . وعائدة من بلدةٍ بعيدةٍ كلّ البعد ، لذلك لا يزورها من ذويها في العيد أحد . وستقضي هذه الأيام وحدها بين أولئك النسوة الصائمات ، المصليات ، الزاهدات ، اللائي كانت تشعر بأن منهنّ غـــير السعيدات رغم امتثالهنّ الظاهري ؛ فتودّع رفيقاتها الواحدة بعد الأخرى متمنية لهن عيداً سعيداً . حتى اذا مضت اخراهنّ انطلقت الى الكنيسة وحجبت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء . واذا بصوتٍ مألوفٍ يهمس في أذنها : « تعالي يا عائدة . فقد سمحت الأم الرئيسة أن اشترك واياكِ مع الأخت حنة في تهيئة المذود » .

فانتصبت الفتاة وفرّت هاربة الى حيث لا يُعثر عليها ، وشهقت متفجعة تقول « اواه ! انها تشفق عليّ ، انهنّ يشفقنَ عليّ ! ربي ، ترى ايها أمرّ ، أخيانة البشر أم شفقتهم ؟ »

●

وكان مساء العيد حزيناً ، وجوّه مكفهراً ، والدير صامتاً ، كتوماً ، مرمرياً كالمقابر القديمة يضنّ بخفاياه . وكان لعـــائدة يومئذٍ ان تفعل ما شاءت دون قانون يقيّدها فتقضي أكثر أوقاتها في غرفة الموسيقى المنفردة في أطراف الحديقة تخيم عليها الأشجار ذات الغصون العارية .

هناك جلستْ طويلاً والسماء تمطر رذاذاً ، ثم نهضت الى البيانو وما كادت تمس أصابع العاج حتى سحبت يدها قائلة « ما أشد برد البيانو ! » ثم أضافت « بل البرد في يدي ، البرد في روحي ، البرد في وحدتي وغربتي ! اني جليـــد ولكني جليدٌ يتعذب ، واشعر بان كل ما في هـــذا الدير جليد حيٌّ ينبضُ ويتعذّب ويبكي ! » .

ألقت برأسها الى خشب الآلة الموسيقية . على ان يداً لطيفة اجتذبتها مداعبة شعرها وخدّها . فصرخت الفتـــاة قائلة « اتركيني ! لا أريد ان يشفق عليّ أحـــد لأني لا أطلب الشفقة ! » .

فقالت الأخت أوجني « واذا طلبتُ أنا شفقتك أتضنّين بها ؟ » وتابعتْ بصوت خافت مملوءٍ بتعنيفٍ عذب .

« ألم تفكري فيّ كل هذه المدة ؟ ألا تحتاجين إليّ في هـذه الأيام مثلما احتاج اليك ؟ » .

وبدلاً من ان تبكي عائدة على خشب البيانو البارد الصلب ، أخذت تبـكي على صدر ليّن دافىء عُلـّق عليه الصليب الفضيّ رمز التضحية والامتثال ، واكتساب الحيـاة بالموت الاختياري .

●

رأيتُ عائدة اليوم في احد المخازن أمام منودٍ تام فيه تمثال الطفل تحيطُ به رموز عيد الميلاد المختلفة . فقلت « أتذكرين أيام المدرسة يا صديقتي ؟ » فاجابت « أذكرها على الدوام » . وأخذت تفكر في شيء بعيد . فحدّقتُ في عينيها ، وخيّل إليّ اني أرى هناك رسم ابنة اثنتي عشرة سنة اتكأت على صدرٍ عُلِّق عليه الصليب ، وقد انحنى على وجه الفتاة الباكية وجه الراهبة الحزين .

فقلت : « أتذكرين الأخت اوجني احياناً ؟ » . فاشارت بالايجاب . قلت: «حتى بعد مرور أربع عشرة سنة تشجيك تلك الذكريات الصبيانية ؟ » .

فلزمت عائدة الصمت وقـــد بدا وجهها مهيباً ، ثم قالت :
« ذكريات صبيانية ؟ وهل نحن الآن غير أطفال ؟ وهل الشباب والكهولة والشيخوخة سوى مظاهر أخرى من الحيــاة الدائمة الطفولة ؟ ما مرَّ بي يوم إلاَّ زدتُ اعتقاداً ان ما نراه ، ونشعر به، ونختبره في الحداثة انما هو، هو ما نشهده متتابعاً من عام إلى عام ، ولكن بصورة اكبر ، في ميدان العالم الوسيع » .

حكاية السيدة التي لها حكاية

لكلٍّ من النـــاس حكاية أوّلية يتناقلها الاقارب والأباعد بلهجاتهم المتعددة ويفهمونها بعقلياتهم المختلفة ، وينسجون حولها حكايات كثيرات . يسردُ الواحد « الحكاية » الأولية عن ذبيحته في تلك الساعة ثم يزيد قائلاً وله معي أنا أيضاً « فصل » ، وله مع زميلي « عبارة » ، وله مع الآخـــر « طابق » الخ . ويجود بهذا الطابق والفصل والعبارة شارحاً متبسطاً منمنماً مزخرفاً . ويصغي الآخرون متعجبين متأففين ، ويتعوّذون بالله العـــليّ العظيم ، وينكتون ويتهكون كأنهم لم يأتوا همُ ولم يأتِ بشرٌ قبلهم شيئاً شبيهاً لما يسمعون . وبدهيٌّ انهم في تطبيق الأحكام على سواهم لا يراعون قانوناً مرناً يستعملونهُ في الحكم على نفوسهم والقاعدة الذهبية القـــائلة بحبّ القريب ومعاملة الآخرين بمثل ما يودُّ المرءُ أن يُعامَل ، لا تزال قاعدة ذهبية ... فحسبُ .

لا يراعي الناسُ في حكمهم على الآخرين ما يجيزونهُ لأنفسهم

وإنما يحكمون وفقاً لنصوص صلبة جُمعت في الجدول الأخلاقي الذي يتسلحون به أمام بعضهم بعضاً . فإذا ما طرحت العيوب في سوق المزايدة ، هي مزايدة لا تقبل المناقصة مطلقاً ، عمد المتحدثون الذين صار كلٌّ منهم في ذلك الموقف باراً صفياً وقديساً مفضالاً ، عمدوا الى ذلك الجدول الصارم كوجه الجلاّد . وكما ان جدول الحساب الذي وضعه فيثاغورس اليوناني هو جدول ضرب كذلك كان الجدول الأخلاقي لمساوىء العبـاد والحكم عليها ، جدول ضربٍ تعالت أرقامهُ الشريفة عن كل طرحٍ شائن !

●

كثيراً ما كنتُ التقي بالسيدة . غ . ب . في أماكن مختلفة ! في الكنيسة ، والحفلات الموسيقية (كونسرت) ، والمخازن الكبرى ؛ وكان يندر أن أسـير في شوارع حيّ الاسماعيلية كشارع قصر النيل ، وعمـاد الدين ، والمغربي ، والمدابغ ، وسليمان باشا ، دون أن أراها مارةً كأنها تقطن هذه الجهات أو قريباً منها . فإذا كنتُ مع صاحبةٍ أو رفيقة لُفظت بيننا تلك الكلمة التي يتبادلها النساءُ ، والرجال أيضاً ، مع احترامي لسادتنا الاجلاء ، لدى مرور سيدة ذات ميزة ما . تلك الكلمة هي « انظري ! انظر ! » ولتلك السيدة غير ميزة فهي معروفة بجمال الصوت وقد سمعتُها في حفلتين اثنتين . وهي أنيقة الهندام

تتزيا باحدث الازياء ، بـل هي من السابقات الى ترويج الازياء الحديثة في القاهرة . ويقولون انها حسناء .

كنتُ أشاهدها عن بعدٍ فيستلفتني اليها ذلك الشيء الخاص في كل انسان وليس هو الهندام ، ولا ملامح الوجه ، ولا الحركة ، ولا السكوت ولكنهُ شيء مبهم يختلف باختلاف الأشخاص . ويزعم بعض أهل الفراسة ان مقرّه بين العينين ؛ ويدعي غيرهم انهُ في انسان العين ، أو حول الفم ، أو في خطوط الشفاه ، أو في ارتكاز الذقن . وأنا لا أعلم سوى انه موجود وانه المكوّن الأكبر لما نسمّيه « معنى » الشخص . وهو عند بعضهم قويٌ ، شديد التأثير ، يلتصق بنفس الرائي فلا يعود ينسى ذلك « المعنى » ولا ينسى حامله .

بعـد كلمة « أنظر ! انظري ! » لابد من « حكاية » عن موضوع النظر . وهكذا سمعتُ عن تلك السيدة حكايات جمّة جعلتني كثيرة التفكير فيها أسائل « معناها » الباقي في نفسي ماذا عليّ ان اصدق منْ كلّ ما قيل ويُقال . ويزيد اهتمامي بها بترا كم الحكايات عنها ، كأني ذلك الرجل الذي تعرّف الى أحدِ المشاهير وقال « سمعتهم يذّمونك فشاقني التعرف بهولك »

عيناها كانتا أعلق الأشياء بحافظتي . هما عينان متغيرتان تظهران مـرةً عينيّ امرأة وجيعة صابرة وحيناً تفكران معرضتين عن جميع مظاهر الحياة . ويوماً تكتّان نظرةً

لا قرار لها ، وتخترقان الأشياء الى فضاءٍ يحيطُ بها ، كأنهما ترقبان في الهواء اشارات يدٍ غير منظورة . وطوراً تبدوان كعينيّ الشخص الاجتماعي الذي يتمتع بافراح عادية ويكتفي بها غير متخيّل وجود ما يفضلها . ثم تتألقان سعيدتين كأن الحياة أشبعتهما مسرات لطيفة هادئة وحقّقت منهما بعيد الأماني . إلا اني كنتُ أحبُّهما عندما تذبلان وينطفىءُ نورهما كأن صاحبتهما شاخت في أسبوعين خمسين عاماً . ثم التقي بها مرةً أخرى فأحسبها في ثوبها الوردي ، وبرنيطتها المرفرفة على وجهها ، طفلةً تنتظرُ من الوجود جميع صنوف الهناء .

●

أقامت يوماً نخبة غواةٍ حفلة موسيقية في قاعة الاعياد الكبرى بفندق شبرد . وقد اشرف على تنظيمها استاذان شهيران هما السيدة ك . أقدر معلّمة بين الأجنبيات المتعاطيات تدريس فن الغناء ، ولها في منزلها اجتماعات حافلة بأجمل أصوات القاهرة من نساءٍ ورجال درسوا عليها والتفوا حولها . والسنيور ف . الذي يقطن هذه المدينة منذ أعوام وقد كثر تلاميذهُ وتلميذاته من مختلف الجاليات ، وتزايد عدد أصدقائه والمعجبين به الذين يرون معجزاته على البيانو متجددةً كل يوم ، مدهشةً كل مرة .

في تلك الحفلة غنّت السيدة التي لها حكاية الا" اني لم أجد من

يحدثني عنها ، ربما لأن أكثر الحضور من أهل الغواة . فكلما عزف عازف أو انشدت منشدة زفّ الجمعُ التهـاني الى ذويه وذويها ليضمنوا بذلك تهانىء تزفّ اليهم عند ما يغني أولادهم ويعزفون . تلك المرأة لم يكن لها أهل ، ومع ذلك فقد أحدث انشادها تأثيراً كبيراً وأثار تصفيقاً حاداً لم تكن تقابلهُ هي بغير السكون . وقـد أطلّ من عينيها لهيبٌ قاتم عميق وارتدت ملامحها هيئةً آمرة تبعدها عن الشباب والشيخوخة معـاً ، وتجعلها شبيهة بالتماثيل التي لا تتغير شاراتها وتظلُّ في أوضاعها ثابتة على الدوام .

فكرت فيها طويلاً ذلك المساء ، وألفّتُ من كلّ ما سمعتُ عنها رواية كئيبة فقلت لنفسي « يا للخسارة ! لماذا تتجاهل هذه المرأة ذاتها ؟ لماذا لا تنسى أنها حسناء فترتفع الى القمة التي أراها أهلاً لبلوغها ؟ » .

وفي الغـد جاء السنيور ف . ليعطيني درسي الموسيقي ولكن بدلاً من أن يأتي في الساعة الحادية عشرة ، وهي الوقت المعّين ، جاء قبل الظهر بعشر دقائق . دخل يفرك يديه وعيناهُ تلمعان وراءَ زجاجيّ نظارته . فتذمرت وقلتُ « انك لا تبالي بوقتي يا أستاذ . لقد أتلفت صباحي ، بل نهاري كله ! »فضحك ضحكة ابتدأت في قرارٍ معتدل وانتهت في ما يشبهُ زقزقة

الطيور وقال : « أنا لستُ أستاذ رياضيات لألزم بالمجيء في الوقت المعين » . وفرك يديه من جديد ليستشهد بالمثل الفرنسوي القائل « بعض التشويش ضروري لتجميل الفنّ » قلت : « ولكن وقتي ... » فقاطع قائلاً « الدرس ، الدرس » وسمع الجيران مـــدة ساعة طويلة تلك الضوضاء الخاصة التي يحدثها التمرين والمراجعة في حضرة المعلم .

ولما انقضت الساعة بإجهاد وسلام طلبت حقّي . والسنيور ف . يعزف لتلاميذه القطعة التي يطلبونها اذا كان راضياً عنهم . وحقي الذي طالبته يومئذٍ قطعة موسيقى روسية كان قد عزفها في حفلة اليوم السابق .

●

فجلس الى البيانو وقبل أن يبدأ تكلمنا عن « الكونسرت » وتبادلنا الآراء في أصوات المنشدين والمنشدات حتى وصلنا الى ذات الحكاية . فسألته « أهي من تلاميذك ؟ »

أجاب « كلاّ ولكنها من تلميذات السيدة ك . وقـــد اجتمعتُ بها عندها غير مرة » .

قلت « أسمعهم يلقبونها تارة بالمدام وطوراً بالمدموازيل ، أمتزوجة هي أم عزباء ؟ » .

فتنهد وقال « يالها من امرأة مسكينة ! » .

فقلت : « وهل من ظروف حياتها ما يحرّك الشفقة الى هذه الدرجة ؟ » .

فقال : « ومَن ذا الذي لا يشفق على امرأة جمعت بين الحسن والذكاء والصلاح وهيّأتها الطبيعة لتسعد وتسعد فلم يكن نصيبها الا الشقاء ؟ » .

قلت : « أي شقاء تعني ؟ » .

قال : « كيف ؟ ألا تعرفين حكايتها ؟ » .

قلت : « أعرف عنها نتفاً مبعثرة . ومن ذا الذي يستطيع أن يرسم لحياة امرىءٍ صورة جلية من كلام الناس ؟ » .

فتنهد مرة أخرى ، وجرَت أنامله بسرعة على السلم الموسيقي كأنه يسرح شيئاً من أسفه أو يبحث عن أسلوب جديد لحكاية قديمة . ثم غشت نظره سحابة وقال « كان والد هــذه الفتاة قاضياً في المحاكم المختلطة وهو على جانب كبير من العلم والذكاء ، فعلّم ابنته وثقّفها أحسن تثقيف . ولما جاء وقت الزواج جرى لها ما يجري لفتيات كثيرات ، أي أن والديها انتقيا لها خطيباً أجنبياً مثلها ، رأيا فيه ما يُملق مطالبهما الاجتماعية . وكان على الخاطب مسحة من الجمال فلم تعارض . ورضيت كما ترضى الكثيرات من أخواتها ليفرحن بالأثواب ، والأساور والحرية

المنتظرة . فتزوجت في عرس فخم دُعي إليه أعيان الجاليات الأوربية . ولم يكنْ حتى استولى الزوج على البائنة المتفق عليها » .

وقف الأستاذ عن الكلام ، وقد بدت على وجهه سيماء الخجل والرحمة والاحتقار جميعاً . ثم قال بعد سكوت قصير « كم أشقت المرأة من رجلٍ ، وكم مزّقت من شملٍ ، وكم كسرت من قلبٍ ! ولكن مسكينة هي عندما لا تكون شريرة ! مهما علت في عين نفسها ، ومهما تحررت من قيودها ، ومهما بالغت المناديات بحقوقها في رفعها الى مستوى الرجل فإن حياتها ، كلّ حياتها ، تظلُّ في قبضة هـذا الرجل الذي تزعم انهـا مثيلته وما هي في الواقع سوى ما يريد هو أن تكون . فإذا كان حراً نبيلاً جعلها حرّةً نبيلة ، وان كان ذليلا حقيراً حقّرها وأذلها . فهي ألعوبته ، وهي عبدته ، وهي الشيء الذي يتصرف به في سائر الأحوال . وبعض ذوي الضمائر من الرجال تروعهم هذه السلطة على المرأة ، وهذه القدرة التي تهـزأ بتقلّب السياسة والاجتماع لأنها أقوى من الاجتماع والسياسة وأمكن باستنادها على الطبيعة نفسها . فيحجمون عن الزواج خوفاً من نفوسهم »

ضايقتني هـذه التعليقات على أهميتها لأني كنتُ أرغب في استماع البقية ، فقلت : « ثم ماذا جرى ؟ » .

قال : « جرى ان ذلك المتحذلق كان مقترناً سراً بامرأة أخرى ، وكان يحتاج إلى نقود فكان الزواج أسهل وسيلة للفوز بحاجته . وبعد ثلاثة أسابيع اختفى » .

— « وكيف اختفى ؟ » .

— « خرج من منزله ولم يعدْ . فجنّت زوجتهُ في الأيام الأولى اذ ظنت انهُ قُتِل . ومرّت الأسابيع فشاع خبر سفره مع زوجته الأولى . فارسلوا يبحثون عنه في بلده بإيطاليا ، وهنا غصّ السنيور ف . بريقهِ لأنه إيطالي ، ولكن ذهبت أتعاب البوليس سدىً ، ولم يجدوا له أثراً لا في إيطاليا ولا في غيرها من بلاد الغرب . ولم يطل حتى توفي والد هذه المرأة التي غُدِرَت في شبابها ، وفي حبها ، وفي مالها ، وفي مركزها . فأمست وحيدة فقيرة ، والكنيسة لا تحلُّ زواجها لأن الرجل لم يكن مرتبطاً مع زوجته الأولى بزواج كنسيّ بل كان زواجه اتفاقياً فقط . القانون يعاقب على هذا ولكن كيف يصل القانون الى من ضاع في المجهول ؟ ولو كسرت الكنيسة زواج المرأة لظلّ الناس في ريبة من أمرها ، لأن المظلوم أكثر تعرضاً للشبهات والتخمين من الظالم ، لا سيا إذا كان

المظلوم امرأة والظالم رجلاً . لذلك ترين الناس يؤولون كل حركة تأتيها لأنها حلّت على ألسنتهم وصارت لأفواههم مضغة سائغة . ولو قضت أيامها بالصوم والصلاة والتقشف لما أنصفوها. ومهما نقدتهم الثمن غالياً فلا يبيعونها ذلك الاعتبار الوهمي الذي يتزلّفون به لدى أهل الجاه والثروة والسلطان ، أو لدى من اتقن « البلف » عليهم . فأي غاية لهذه المرأة من الحياة ؟ لا هي طليقة تتصرف بأيامها ولا هي مقيّدة تجـــد في تحطيم قيودها تعزية وسلوى . هذه حياة بتراء أشقاها الرجل كما بتر وأشقى مثلها وقبلها كثيرات ... » .

قلتُ : « ولكن كيف لم تشعر هي خلال الخطبـة أنه يخادعها ؟ » .

قال : « لا أدري كيف لم تفهم هي ولم يلمح أهلها شيئاً من ذلك » .

قلت : « لعلّه تزوجها مخلصاً الا أنه ظـــلّ يفكر في تلك التي ربما كانت على جمال عظيم » .

قال : « يقول الذين يعرفونها أنها عجوز شمطاء ويتعجبون كيف يرضى بها هـذا المتوقد المتأنق جارية » . ثم أطرق قليلاً وقال : « ولكن ليس للشباب والجمال دخل في هـذه المسائل . الجمال يُبحث عنه في الصالون ، والمرسح ، والاجتماع ، والشارع

والمرأة المليحة تجذب النظر عادةً أكثر ممّن كانت أقلّ ملاحة . على أن تأثيرها لا يتعدّى ذلك والتاريخ شاهد على قولي . وأقرب شواهد التاريخ نجدها في وليّ عهد النمسا الذي نشبتْ الحرب أثر مقتله ، وهو الذي أعرض عن جميع الارشيدوقات النمساويات الباهرات الجمال ، وعن جميع الأميرات في الدول المالكة ، وتنازل عن العرش والتاج غير مرة ليتزوّج بمن هي أقلّ النساء ظرفاً وحسناً . وهي الكونتس دي شوتك وصيفة إحدى قريباته ، التي صارت بعد زواجها الدوقة دي هوهنبرج وقد قُتلت معهُ في مفجعة سراجيفو » .

وعدّل السنيور ف . جلوسه وأخذ يعزف قطعةً حماسيةً حزينة من وضع بتهوفن وهي « مارش جنازة البطل »
(Marcia funebre d'un eroe)

●

رأيتُ البارحة ، في حديقة بضواحي القاهرة ، السيدة ذات الحكاية . فهمتُ الآن لماذا يتغير معنى عينيها ؛ ولئن لم أدرك بعد تماماً ماذا تعني كلمة « حياة بتراء » فإني أدرك ان الحياة تهيء لبعضهم ظروفاً لم يحلموا بها ، ولو حلموا لتلافوها مشياً على الأشواك والجمرات . وعلمتُ

أن في ذلك القوام المعتـــدل ، وفي ذلك الهيكل الذي يمثل القوة والأنفة قلباً ، قد يكون مجرحَهُ الحبُّ الصادق يوماً إلا أنه اليوم يعذبهُ سرطان تتمدّد منه الأصول في جميع نواحيـــه ، ذلك السرطان العريق الذي لا يقتلع : احتقار الحياة وعدم الثقة بالناس .

ساعة مع عيلة غريبة

الأشخاص

متاتيـــاس – مالي من رجال البورصة

أغـــابي – زوجته يونانيـة الأصـل تظهر اللكنة الأعجمية في لفظها

مدام سالم – أخته الكبرى ضيفة عنده مع زوجها

الدكتور سالم – صهر متاتياس

سميحـــة – أخت متاتياس الصغرى . عزباء تسكن معه . وقــد توفيت والدة هؤلاء الاخوة الثلاثة على أثر ولادة سميحة

شفيـق – طالب في مدرسة الحقوق. أديب وموسيقي. أخو متاتيـاس لأبيه وقــد توفيت والدته

كذلك بعد وفاة أبيه. يصغر سميحة بعامين
أو أكثر قليلاً

المــكان

منزل فخم في رمل الإسكندرية

الــوقت

بعيد الساعة التاسعة صباحاً

متاتياس – (جالس أمام المائدة يتناول طعام الفطور وإلى يمينه زوجته ، وإلى شماله شقيقتاه مدام سالم وسميحة . يتحادثون عن أشياء عادية كالمغص الذي تألم منه الولد، والخصام بين الخدم، والخصر على طاولة البكارا البــارحة ، وكم ربح الجيران من مدخول البوكر في الشهر المنصرم الخ . يدخل شفيق بلا تسرُّع ويجلس بهدوء في مكانه قرب سميحة . متاتياس يرقبهُ بشيء من الاستياء ثم يتنحنح ليجلو صوته ولينذر السامعين بأنه سيقول شيئاً خطيراً . مخاطباً شفيق) : صحّ النوم !

شفيق – (بعد سكوت قصير) : لم أكن نائماً ، أنا آتٍ من حمّام البحر .

متاتياس – من حمّام البحر ؟ إذاً هذه الليلة لم تنم كعادتك ؟ (شفيق يصب القهوة في فنجانهُ معرضاً) إذاً تريد أن تنتحر

انتحاراً ؟أتظنّ اني سأحتمل هذا طويلاً دون أن أدعك تشعر بأن لك من يسيطر عليك؟ في الليل بدلاً من أن تفعل كسائر الخلائق فتسهر في تياترو أو في سينما ...

شفيق – (مقاطعاً بأدب) : وهل من شروط الخليقة أن تسهر (مفخّماً اللفظة) الخلائق في تياترو أو في سينما ؟

متاتياس – (دون أن يلتفت لمقاطعته) ... أو معنا نحن أهلك فإنك تذهب إلى مجتمعات الدعوى ، والكلام الفارغ ، والعقول المرقّعة التي تسمّيها أندية الأدب والمناقشة والخطابة (أغابي ومدام سالم يتبادلان اشارة أسف وتتنهدان عالياً جداً) وتعود بعد نصف الليل الى كتبك الشيطانية كأنّ نور النهـــار لا يكفي لإضعاف بصرك وإتلاف صحتك وتقصير حياتك ...

أغابي – (تتنهد مرة أخرى) : يا سلام !

متاتياس – (ينظر اليها شزراً لجرأتها على مقاطعته. ويتابع متغيظاً) : كانت غرفتك منارة عند الساعة الثالثة فمتى نمتَ ومتى استيقظت ؟ ألا تعلم أن الكتب لم يتاجر بهـا متاجرٌ إلاّ وجننته ، جنّنته وأفقرته ؟ أتريد أن تعيش مستعطياً ذليلاً ؟ ألسنا نحن أفضل من هذه الوريقات عدّة ابليس ؟ أليس مجلسنا أهلاً لـك حتى تقضي الساعات مسجوناً في غرفتك ، وعندما تخرج الينـا لا تعطينا غير الدقائق التي تقضيها على المائدة ؟

أهكذا يصطاف الناس ، أهكذا يتنزّهون ويعيشون ؟ أتعلم أن أمرك صار يشغلني الى درجة القلق ؟ ساعدك الله على حياتكَ كيف تكون !

شفيق – (يحرّك السكر في فنجانه بهدوءٍ ويحتمل هــذه الوعظة بتجلد من اعتاد سماعهـا . يتكلم بأدب ورصانة) : يسوءني أن أكون سببـاً لإزعاجك . ولكني لا أستطيـع تغيير فطرتي . ثق بأني لن أفعل ما يؤذيني بل أتمتع بحريتي باعتدال . أحب أن أشعر بأني حرٌ مطلق الحرية .

مدام سالم – (تشهق متعمّلةً التعجب والغيظ) : أخوك يريد خيرك وينصحك وأنت تقول له « أنا حرّ » ؟ نجّنا يا ألله من أولاد الجيل الجديد دا !

أغابي – دا أيه دا يا شفيق ؟ انت تبقى حرّ ازّاي ؟

شفيق – (متأملاً في ذكائه لمناقشة هذه الرؤوس الخاوية) : ها قد ابتلينـا بموضوع جديد ! وهل كلمة « أنا حرّ » ، هـذه الكلمة التي تُثبتُ وجود الإنسان أمام الوجود ، هل هي أثيمة الى هذا الحد ؟ انَّ لي ذوقي وميولي ومطالبي ورغباتي وكلهـا تختلف عن ذوق أخي وميوله ومطالبه ورغباته . لا يعني هذا اني أفضله أو انه يفضلني . كلُّ طبيعة حسنة منسجمة في ذاتها . ولكنه عندما ينصحني ويعنفني يقدّر أني مثلهُ تماماً ، ويجردني

من نفسي ، ولا يتصوَّر أني أختلف عنه كل الاختلاف . فحبذا لو تفاهمنا مرة واحدة ووضعنا حداً لمثل هذه المناقشات. لكلٍّ منّا فطرته وحريته ؛ ولي حريتي وأريد أن أتمتع بها .

مدام سالم — (وقد طفح كيل تعجُّبها): يا ابني دا أخوك. يكبرك بعشرين سنة . دا رباك زيّ أبوك . دا هوّ احتضنك ورباك . وأنت تخطىء تتبع سبل الضلال ، ولما يجي ينصحك تقوم انت تتجاسر تقول له « أنا حر » .

شفيق — (متتبعاً باهتمام تخنّي هذا المنطق الأعوج) : مَن يسمعكِ قائلة اني أسير في « سبل الضلال » يحسب أني ... (يصمت فجأة اذ يأنف متابعة جدال كهذا ، ثم يقول بشيءٍ من المرارة) تلومونني لأني لا أطيل الجلوس معكم ، وهل من عجبٍ وكل جلسة كهذه الجلسة ؟

متاتياس — (يتنحنح كعادته ليقول شيئاً خطيراً » : وكم دفعت ثمن الأرغن الذي جئتَ به البارحة ؟

شفيق — (بتأدب) : هذا أمر لا يعني غيري .

متاتياس — (يغضب حقيقة هذه المرة) : شؤونك المالية لا تعنيني ؟

شفيق — (ينجح في أن يكون هادئاً كالأول): انها لا تعني غيري في هذا الموقف لأني ابتعتُ الأرغن بما توفر لديّ من

مصروفاتي الشهرية. وأنا حرّ في أن أشتري آلة موسيقية تسرني ولا تؤذي أحداً.

مدام سالم – هو « حرّ » من جديد. هو « حرّ » كل مرة.

متاتياس – ألست مجنوناً ؟

شفيق – يهزّ كتفيه) : قد أكون مجنوناً لأني لست مثل ...

متاتياس – (متمّماً فكر شفيق) : مثلنا نحن ، أليس كذلك ؟ نحن عقلاء نعمل كجميع الناس ، ونجتمع بالوجهاء أمثالنا ، وألعابنا ومسراتنا معقولة معتبرة كما أن أشغالنا شريفة كثيرة الأرباح. أما أنتَ فانظر الى ما تفعل واذكر من تعاشر. وأنا أريد أن أصلحك رحمةً بكَ وخوفاً على مستقبلك فتقبل نصحي كالمجنون الأحمق.

شفيق – (بهدوءٍ حزين) : حدثني عن رحمتكَ ... اني حتى الساعة لم ألمح خيالها ...

متاتياس – (يتكلف الشفقة المتناهية) : وماذا ينفع الذكاء والدرس ان لم يقدهما النصحُ والرأي ؟ اعلم ، أيها المغرور ، انه كما قال الشاعر العربي (بفخامة وتأنٍّ في الألفاظ) « الرأي قبل شجاعة الشجعان ».

(شفيق ينظر الى أخيه بعينين واسعتين دهِشتين وفيهما خيال الضحك . فتهمس لهُ سميحة بسرعة : « لا تدهشنَّكَ هذه الفصاحة الفجائية ! هذا عنوان اعلان تجاري رآه في جريدة هذا الصباح قرب أخبار البورصة » . هنا ينهض متاتياس بعظمةٍ تتبعه زوجته ومدام سالم ويتجهون نحو الباب . وعندما يصل متاتياس قرب أخيه يتهكم قائلاً : « ابقَ على حريتك لنرى الى أين تقودك » ثم يخرجون وشفيق مهتم بلس الزبدة على كسرة خبز في يده . وبعد أن يبتعد وقع أقدامهم يجيل النظر فيما حوله فيرى انه وحده فيحمل فوطته ويلوّح بها في الفضاء كمن يطرد الذباب . فيسمع صوتاً يتكلم وراءه ويلتفت فيرى الدكتور سالم مشيراً نحو الشرفة حيث سميحة تسقي الازهار) .

الدكتور سالم – (مخاطباً سميحة) : أتسمحين لي بفنجان قهوة صغير ؟

سميحة – أسمح بفنجـــان قهوة كبير (تدخل من الشرفة وتدنو من المائدة) .

الدكتور – أشكر لكِ كرماً لن أتمتّع به . يجب أن أذهب الى المدينة في الحال (مخاطبـاً شفيق) كيف الحـــال ، يا سي شفيق ؟

شفيق – في الحياة أمراض لا يداويها الطبّ ، يا دكتور .

سميحة – (بعطف أكيد) : لقد أنهكوا قوى هذا الولد المسكين .

الدكتور – (يشرب القهوة واقفاً) : كذا ؟ وأي ذنبٍ جنيتَ ، يا كثير الذنوب ؟

شفيق – هو الذنب الأكبر الذي لا ينتهي . وهل ينتظرك في المدينة مريض ما ؟

الدكتور – لا تغير الموضوع . اخبرني عن ذنبك الجديد .

سميحة – سهر البارحة في النادي . وظلّت غرفته منارةً حتى الساعة الثالثة صباحاً . وابتاع ارغناً . وقال انه « حرّ ». هذه قائمة الذنوب الجديدة .

شفيق – (لا يلتفت اليها) : ذنبي الذي لا يغفر هو اني لست طفلاً . اريد ان افتكر بنفسي ، وأعمل لنفسي ، وأعتمد على نفسي . وهم يقذفون عليَّ بآرائهم ونصائحهم في كل حين . وما هي قيمة الرأي يا ترى اني لم اطلبه أنا ؟ وقد أطلبه وأسمعه دون ان اتبعه . ثم اذا استشرت غيري كل خطوة فكيف اعرك الأمور فأخطىء هنا وأصيب هناك ، وأكتسب من الفشل والنجاح اختباراً هو في الحقيقة أكبر وأقدر ما يقود المرء في هذه الحياة المتشعبة السبل ؟

الدكتور – الرأي حسن ، يا شفيق ، عندما تطلبهُ وتكون في حاجة اليه .

شفيق – (متحمساً) : حسن في هذه الحال وقبيح في ما عداها . عندما اقصدكَ مستشفياً اعلم انك تستطيع شفائي فأذعن لأوامرك وأقبل نصائحك. وعندما اسألك رأيك اعتبرك قادراً على وضع نفسك مكاني والشعور معي ، حقيقاً بأن تقودني في طريقٍ سلكتها واختبرتها قبلي . ولكن ما قيمة الرأي عند غير اهله ؟ كيف يرشدني في الموسيقى من لا يتقن إلا التجارة ؟ كيف يصلح اغلاطي اللغوية من كان صحيحه مغلوطاً ؟ كيف يعلمني الصينية من لا يعرف عدد حروفها ؟ ثم كيف هو ينهاني عن قيادة زورق حياتي كما اريد ؟ عجباً ! أألام لأني لا اقضي لياليّ حول الطاولة الخضراء ، ولا اصرف نهاري بين سباق الخيل ، وصيد الحمام ، وحانات الرقص والشراب ؟ كنتُ وما زلتُ اعتقد ان من كانت هذه حياته حقٌ عليه الملام ، وها أنا الذي اطلب الهدوء والوحدة أقابَل بالشغب والعبوس. (يصمت آسفاً لأنه تكلم ، إلا ان الكلام يعود متدفقاً من شفتيه) يُعيرني انه رباني صغيراً . والله يعلم كيف رباني ! انه ادخلني المدرسة وهل كان بوسعه ان يفعل اقلّ من ذلك ! ويقول انه بمثابة الأب لي فأي حنوّ وطَّد هذه الأبوّة ؟ كنت اقضي في المدرسة شهوراً

طويلة دون ان اراه ، وإذا زارني هو و ... وهنّ حملوا إليّ الحلوى واللعبات وكل ما تجلبه الدراهم ولكنهم لم يكونوا ليعطوني منهم شيئاً . الدراهم أورثنيها أبي مثل ما أورثهم . اما قلوبهم فكانت مختومة كالقبور. كنت ابكي – أتسمع يا دكتور؟ قلتُ ابكي – كنت ابكي عندما ارى رفاقي في احضان ذويهم محبوبين مدللين ؛ اما هو فكان يأتي ويذهب بلا قبلة عطف ، بلا كلمة محبة ، بلا نظرة اهتمام لليتيم الصغير الذي كنتهُ . وكم كنت مستعداً لأحبه ! وكم كنت اتمنى ان يتركني احبهُ دون ان يجمد قلبي ! ولو علمت اليوم انه ينصحني مهتماً مخلصاً لسعدتُ بالتنازل عن رأيي وسارعتُ الى اتيان ما يشتهي . ولكنه ينصحني ليجعل لنفسه اهمية وليذلني ؛ ولو أذعنتُ لكلامه لحظةً ما تأخر عن تغييره في اللحظة التالية (يتنهد) لا أستنشق في هذا البيت غير هواء المقت والكظيمة . انهم ينظرون اليّ كدخيلٍ مغتصب . وهذه امراض عضّالة لا تستطيع معالجتها يا دكتور (تلتقي عيناه بعينيّ الطبيب وهو ينظر اليه طويلاً بعطف يشبه المصادقة . فيهز رأسه فجأة ويحاول الابتسام) استمحيك عفواً فقد مزجتُ قهوتك بالشكوى . (يهز كتفيه) ما احقر الشكوى وما احقر الشاكي ! (يتغلب على نفسه ويرسل زفرة عميقة) انتهى يا دكتور .

الدكتور – (متجهاً نحو الباب) : نصحي اليك ، وإن كرهتَ الناصّحيْن ، ان تخرج من نفسك بقدر الإمكان . ان عكفك على ذاتك يزيد عواطفك رقةً وتهيجاً . احتكّ بالناس ، اسمع ثرثرتهم ، شاركهم فيها ، اخرج الى الهواء الطلق ، تعاطَ الالعاب الرياضية . العبْ ، العب ، كن من ابناء جيلك لئلا تتعذب كثيراً .

سميحة – (تقمز ضاحكة) : سلمني مريضك فأمرّضه يا دكتور ! (الى شفيق) تعالَ معي الى الهواء الطلق ! تعال وكن رابع رفقائي في دور « التنس » هـذا الصباح ! (يخرج الطبيب مسلماً ويحاول شفيق اتبـاعه فتسدّ سميحة الطريق قائلة) : لا تذهب هكذا . لئن ساءني أن أراك غاضبـاً فإنه يحزنني أن أراك حزيناً . وعندما يضايقونك يضعف احتمالي وينفذ صبري .

شفيق – (ببرود) : يحزنكِ ! يسؤك ! انـك مثلهم جميعاً .

سميحة – ما أجهلك بي ! لماذا لا تنظر إليّ ؟ لا أدري أأنت محقّ أم متاتياس ، ولكن ميلي معك .

شفيق – (بلا اكتراث ودون أن ينظر اليها) : عجائب !

سميحة – لو علمت اني في حاجة اليك، وإني شقية مثلك في هذا البيت لما كلمتني بهذه اللهجة .

شفيق – (يتكلف الاهتمام التمثيلي) : شقية أنت بين حمّامات البحر ، ولعب الكرة ، والسهرات الراقصات ، والسينما ، والتياترو ، ومغازلة أبناء الوجهاء أمثال أخيك ؟ تعزي بالأثواب الجديدة ، والقلائد الكثيرة ، والكعاب الطويلة ؛ تعزي ولا تحزني ! (ينظر الى ساعته) مضى الوقت أرجوك ان تدعيني أخرج .

سميحة – (بتأنٍّ) : قلت اني في حاجة اليك .

شفيق – (يخرج من جيبه مفكرة وقلم رصاص) : صحيح ، نسيت ؛ بماذا تريدين أن أجيئكِ من المدينة (منتظراً أن تتكلم ليكتب) بودرا ؟ خضاب ؟ عطر ؟ زهور ؟ شكولاتا ؟ أي شيء ؟

سميحة – (يظهر الحزن في وجهها . وتفسح له الطريق قائلة) : لك أن تخرج .

شفيق – (يخطو العتبة وهناك يتردّد ذاكراً خشونته . ثم يلتفت ويعود نحو سميحة وينظر في وجهها متمتماً ما يشبه

الاعتذار) : انك لا تنقمين عليّ ، أليس كذلك ؟

سميحة – وماذا يهمك ؟

شفيق – لا يهمني ! لقد هنتُ على الآخرين فهانوا هم عليّ . لا يهمني شيء .

سميحة – فهمتُ اني لا أهمك وإنك لا تريد أن تعتني بأمري . أعدتَ لتقول هذا ؟

شفيق – عدتُ لأقول . . . (بتردد) أراكِ غير راضية .

سميحة – حقاً لستُ راضية . اني شقية .

شفيق – (لا يريد أن يتأثر) لستِ جادّة .

سميحة – وهل من شقاءٍ أوفر جداً من أن تقصد زوجة متاتياس أن تزوجني لأحد أقاربها واسمه خريستو بوبو لاندو بولس .

شفيق – (يرفع يده كمن يتقي رأسه لطمة) يا حفيظ ! ما كل هذا ؟

سميحة – كل هــذا اسم واحد . (يائسة) اسم يملأ بطاقة الزيارة من أولها إلى آخرها .

شفيق – (مؤاسياً) هوّني عليــكِ ! وماذا يقول متاتياس ؟

سميحة – وماذا يُنتظر من رجلٍ لا قيمة عنده إلاّ للمال ، وكل اسمه متاتياس ؟

شفيق – (يضحك) لست أدري لمــاذا أعطوه هــذا الاسم .

سميحة – يظهر ان ابن جارة يونانية لنا كان يُدعى به . وربما كان نبوءَةً بأنه سيقترن بامرأة يونانية من ذوي قرباها خريستو بوبو لاندو بولس هذا .

شفيق – ممكن (يضحك . ثم تعود اليه هيئة التفكير شيئاً فشيئاً) إذاً تتخوّفين الإرغام ؟ أيزعجك الإرشاد المتتابع ، أم في هذا القلب الصغير شيء آخر ؟

سميحة – أنت طيب كجميع الرجال الأذكياء .

شفيق – (يتفحص وجهها بدقة) وكيف عرفتِ جميع الرجال لتعلمي أن الأذكياء منهم ...

سميحة — (مشرقة الوجه) أعرف الجميع لأني أعرف واحداً (تهز رأسها لتخفي خجلهـــا) وأنت اخبرني اسرارك : بين الكثيرات المفضّلات على الكثيرات ، والقليلات المفضّلات على الأخريات ، ألا يوجد واحدة ...

شفيق — (يأتي اشارة مبهمة ونظره يتبعُ خطوط حلمٍ بعيد) ليس هذا من شؤون الفتيات . وساروفيمك هــذا من أبطال « التنس » ؟

سميحة — ان ذكاءك لمدهش ! هو زميلي وقد غلبتهُ مرات مع انه لاعب ماهر .

شفيق — وقد نال حظوة في عينيك لأنه لاعبٌ ماهر أم لأنه مثّل دور المغلوب ؟

سميحة — (تحلم) لستُ ادري . انه يجذبني خصوصاً ونحن وحدنا في الليل على شطّ البحر .

شفيق — (متبرّماً) : وحدكما على شطّ البحر ، وفي الليل، ما هذه الحكاية ؟

سميحة — (تتغير ملامحها وتجللها الهيبة والعظمة) : هناك عطفة تؤدي الى الشط حيث طــائفة صخورٍ لهـــا صور

الضواري وأشكال الكواسر . ينبسط أمامها البحرُ بموجهِ المائية وتنهده العميق الفسيح . هناك تحت عيون النجوم أجلسُ على مقربةٍ منه، أجلسُ في حماه، فيتناجى هو والبحر صامتين وأظلُّ حابسةً أنفاسي لأستمع لنجواهما .

شفيق — (مأخوذاً بهذا الشيء الجديد الذي لم يعهده فيها) : أشاعرة أنتِ ! حقاً ان المرأة لغزٌ.(ولكنه يعود إلى ما يشغله) ومن ذا الذي اكتشف هذه الخلوة ؟

سميحة — ومن ذا الذي يصنع الأعاجيب غيره ؟ اكتشفها وقال « تعالي » فذهبت .

شفيق — (غير مسرور) أيكفي أن يقول « تعالي » لتذهبي ؟

سميحة — (تملأ عينيها مشاهد بعيدة) يكفي أن يقول « تعالي » لأذهب .

شفيق — (جاداً) أنصحك ألاّ تذهبي بعد الآن. (سكوت قصير . ثم يقول آمراً وبقوة هادئة) لا أريد أن تذهبي . أتفهمين ؟

سميحة – (تعود الى خفتها الأولى . مقلدة صوته) « نصحي إليك ألا تذهبي » « لا أريد أن تذهبي » (ثم بلهجة خطابية فخمة وإشارة تمثيلية واسعة) اصغي خاشعة ، ايتها الشعوب ، فإن اخا متاتياس يتكلم !

شفيق – (متغلباً على نفســه لا يريد أن يضحك) اسمعي يا بنيّة . أنت لا تعرفين هؤلاء الشبان ولا تسمعين ما يتبجّحون به أمام بعضهم بعضاً . يكفي الواحد منهم أن يعرف فتاةً معرفة سطحية وأن تكون علاقته بهـــا اجتماعية محضة ، فتجامله مجاملةً تقضي بها الاصطلاحات ، بل قد يكفي أن يراها مرةً واحدة ليذكرها بلهجةٍ توهمُ أنه واقف على جميع دخائلها . لو علمت النســاءُ بجميع التعليقات ، والملاحظات ، وانصاف الابتسامات ، انصاف النظرات ، وصنوف السكوت الخبيثــة التي يشفعُ بهـــا ذكرهنّ أولئك المتملقون ! آه لو علمت النساء الغافلات !

سميحة – شرير منكَ أنتعمد إلى الوشاية .

شفيق – هذا هو الواقع مع الأسف .

سميحة – قد يوجد بين الرجال كمن وصفتَ ولكن هو لا يشبههم .

شفيق – كلُّ امرأةٍ تُكبرُ بطلها وترفعه فوق الآخرين . أقول لكِ أنه يكفي أن يصافحها ...

سميحة – (بلهجة الغالب) وأنا أقول لك انه لا يصافحني .

شفيق – (مرتاباً) ألا تصافحينهُ قبل « التنس » وبعده ؟

سميحة – أصافحه وقتئذٍ ، واصافحهُ كلما اجتمعت به في الأندية العامة كما أصافح غيره من معارفي . أما في تلك الخلوة القدسية ، فلا .

شفيق – أهي معاهدةٌ بينكما ؟

سميحة – تعاهدنا ولكن بغير كلام .

شفيق – لم تتصافحا البارحة ، أما الغد فمن يضمنهُ ؟ لو مدَّ لك يدهُ ، نعم لو مدَّ يدهُ وقال « ضعي يدك هنا » فماذا أنت فاعلة ؟

سميحة ـ (لا تريد أن تتخيل ذلك) : هذا غير ممكن . هذا مستحيل .

شفيق ـ ولكن هي لحظة أن المستحيل ممكن . لو مدّ يده غداً وقال (يلفظ الكلمات بتأنٍ متعمداً) بلهجة قوله « تعالي » ، لو قال بتلك اللهجة « ضعي يدك هنا » فماذا أنتِ فاعلة ؟

سميحة ـ (حائرة حزينة) أتركهُ ، أهرب ، ولا أعود ألتقي به . (ترفع رأسها مفاخرةً) غير أن الرجل الذي احتمي بجاه لا يُحرجني إلى الهرب .

شفيق ـ كم تحبينهُ ! (سميحة تضطرب كأن هذه الكلمة لمست من نفسها مكاناً مؤلماً فتسبل أجفانها وتسحّ دموعها ببطء . شفيق يتأملها) أ إلى هذا الحد ؟

سميحة ـ (تفتح عينيها فجأةً وتسأل بحرقة) شفيق ، قل لي ! أتظن ان فتاة مثلي ، فتاة عادية مثلي ، تستطيع أن تسعد رجلاً حادّ الذكاء ؟

شفيق ـ (يبتسم بحلم) أرى جميع أعراض المرض بادية .. وأراك ككلّ امرأة تبالغين في قدر من تحبين . (يسكت

متأملا) أتمنى ان يكون هذا الغلام أهلاً للكنز الذي هو أنت . (ثم معاتباً ومداعباً معاً) وهكذا أفقد أختي ساعة أجدها ! إذا سرق هو كل شيء ، فماذا يبقى لي ؟

سميحة ـ في صدر المرأة قلوب ، يا فيلسوف ، وعلى كلٍّ ان يجد القلب الذي يخصه . (عائدة الى الموضوع الرئيسي) خلاصة كل هـــذا إني اتكل عليك في دحر متاتياس وخريستوبو بولاندوبولوس وشركائها .

شفيق ـ سندحرهم ! ومعنا الدكتور سالم الذي احترمه لأنه ليس على وفاق مع أختك زوجته .. مسكين ! أما سهراتك أنتِ على شط البحر فسيكون لك من يرقبهـــا ويحرسها ... يا لعناد النساء ! وفي ما عدا ذلك سندحرهم ، ولنا الفوز المبـــين !

سميحة ـ أمين ! (تمضي باحثة عن صولجان « التنس » وشبكته وتنشد) « يا ليله يابيضا يا نهار سلطاني » (ثم تغادر الغرفة بخطوات خفيفات راقصات) .

شفيق ـ (يخرج الى الشرفة منتظراً مرورها في الحديقة

وعندما يراها ينحني قائلاً) سلّمي عليه !

سميحة - (تتظاهر بعـــدم الفهم) أي شيء ؟ ثم تضمّ أصابعها وتدنيها من شفتيها وتقول) : مـــا أحلى اسمك يا شفيق !

(الستار)

فهرس

صفحة

صفحة

مؤلفات مي زيادة

أدب – نقد – اجتماع – تاريخ – عمران – فن – حضارة

باحثة البادية

غاية الحياة

كلمات واشارات

المساواة

الصحائف

بين الجزر والمدّ

وردة اليازجي

عائشة تيمور

سوانح فتاة

ظلمات وأشعة

رجوع الموجة

ابتسامات ودموع

سوانح فتاة

ليس في الثلث الأول من القرن العشرين صوت أدبي نسائي أشجى من صوت مي زيادة.

وليس من فكر كفكرها يلتمع فيضيء داعياً إلى الحرية والتقدم مجاراة لركب الحضارة في شتى الميادين والسبل.

وهي في كل ما كتبت تجسّد طموح الأقلام المستنيرة إلى التجديد الأدبي إبداعاً في الشكل التعبيري وفي المضمون الفكري، فضلاً عن أنها تجسد طموح المرأة العربية إلى الحياة وطموح الأمة إلى الوصول في حركة العصر وبناء المجتمع.

سوانح فتاة مجموعة خواطر وآراء في الناس والحياة، وبعض مقالات كتبتها مي في ظروف مختلفة وبناء على اقتراح من ولي الدين يكن وإلحاح كبير من جانبه.

الناشر